تبسيط أصول الدين

أحمد محمد محمد عبد المحسن محمد غازي

المحتويات

مقدمات ٤
التعريف بعلم أصول الدين ٤
الأسئلة التي يجيب عليها علم أصول الدين ٤
حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق ٥
تعريف العلم ٦
العلم الضروري والنظري ٦
طُرُق العلم ٧
معرفة الله سبحانه وتعالى هي أول ما يجب شرعا على المكلف ٨
تعريف المكلف ٨
المقصود بمعرفة الله سبحانه وتعالى في علم أصول الدين ٩
أنواع الحكم ٩
الحكم الشرعي ٩
الحكم العادي ١٠
الحكم العقلي وأقسامه ١٠
الحكم العقلي حكم على إمكانية وجود معلوم ما ١١
الوجود والعدم ١١
أمثلة على أقسام الحكم العقلي ١٢
الإلهيات ١٢
مقدمة مبحث الإلهيات ١٢
القِدَم والحدوث ١٣
الجواهر والأعراض ١٣
العالَم حادث ١٤
دليل حدوث العالم ١٥
معرفة الفرق بين الخالق والمخلوق ١٦
الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، وتعريف الدَّوْر والتَّسَلْسُل ١٦
الصفات السلبية ١٧
القِدَم بالذات ١٨
البقاء ١٨
القيام بالنفس ١٨
مخالفة الحوادث ١٩
وحدانية الذات والصفات والأفعال ١٩
دليل الوحدانية ٢٠
التأثير هو الإيجاد من العدم ٢٠
مذاهب الناس في التأثير ٢١
التأثير وحكم العادة ٢٢
صفات المعاني ٢٢
القدرة ٢٣
الإرادة ٢٣
العلم ٢٣
الكلام ٢٤
إرادة الله شيء وأوامره شيء آخر ٢٤

السمع والبصر والحياة... ٢٥
تعلق صفات المعاني... ٢٥
معرفة ما يستحيل في حقه سبحانه وتعالى.. ٢٦
معرفة ما يجوز في حقه سبحانه وتعالى.. ٢٦
أفعال الله سبحانه وتعالى.. ٢٧
مثال لأفعال الله سبحانه وتعالى... ٢٧
الكسب وأفعال العباد.. ٢٨
الكسب والتكليف... ٢٨
لا يجب على الله سبحانه وتعالى فعل شيء أبدا.. ٢٩
القضاء والقدر.. ٣٠
التحسين والتقبيح.. ٣٠
مذاهب الناس في أفعال العباد... ٣١
إرسال الرسل جائز في حقه سبحانه وتعالى... ٣١
المعجزة وخوارق العادات.. ٣١
النبوات.. ٣٢
النبي والرسول... ٣٢
الأمانة... ٣٢
الصدق والتبليغ والفطانة... ٣٢
معرفة ما يستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. ٣٣
معرفة ما يجوز في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام... ٣٣
السمعيات.. ٣٣
وجوب الإيمان بالسمعيات.. ٣٣
الإيمان والإسلام... ٣٤
الثواب والعقاب.. ٣٤
الجنة والنار.. ٣٥
النشر والحشر والحساب والحوض والميزان والصراط.. ٣٥
الجن والملائكة والأنبياء والأولياء.. ٣٥
ترتيب الخلق في الفضل.. ٣٦
الإسراء والمعراج وفتنة القبر ونعيم القبر وعذابه وأخذ العباد الصحف والشفاعة................................. ٣٦
علامات يوم القيامة.. ٣٧
بعض تطبيقات علم أصول الدين... ٣٧

مقدمات

التعريف بعلم أصول الدين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد،

فعلم العقيدة، يسمى أيضا باسم علم الكلام وعلم أصول الدين وعلم التوحيد والفقه الأكبر. وتعريف علم العقيدة هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه.

ويبحث علم العقيدة في ثلاثة مباحث، وهي:

١- الإلهيات، وهي معرفة ما يجب وما يستحيل وما يجوز عقلا في حق الله سبحانه وتعالى.

٢- النبوات، وهي معرفة ما يجب وما يستحيل وما يجوز عقلا في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٣- السمعيات، وهي معرفة العقائد الثابتة بالسمع، أي التي عرفناها عن طريق الوحي أو النقل، أي القرآن والسنة والإجماع، مثل الجنة والنار والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب والجن والملائكة وغيرها.

وعلم العقيدة هو العلم المختص بأحد أقسام الدين الثلاثة المذكورة في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام مع سيدنا جبريل عليه السلام عندما جاء يسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان. فعلم العقيدة هو المختص بقسم الإيمان، وعلم الفقه هو المختص بقسم الإسلام، والتصوف هو المختص بقسم الإحسان.

إذن، الأقسام الرئيسية للدين هي كما يلي:

١- العقيدة.
٢- الفقه، وهو ينبني على العقيدة.
٣- التصوف، وهو ينبني على العقيدة والفقه.

ولذلك سمي علم العقيدة باسم علم أصول الدين، لأن الدين كله ينبني عليه كما رأينا عاليه. والحقيقة أن علم أصول الدين يضبط الفكر بصفة عامة، فيصح تسميته باسم علم أصول الفكر، كما يصح تسميته باسم علم أصول الدين والدنيا، وذلك لأن معظم العلوم الدنيوية تنبني أيضا على علم أصول الدين. ولذلك، فتعلم هذا العلم هو أول ما يجب شرعا على المكلف. والمقصر في تعلم ذلك العلم مرتكب لذنب ومعصية. ومعرفة مبادئ هذا العلم فرض عين على كل مسلم، ولو إجمالا وبدون تفاصيل، كل على حسب قدرته. ومعرفة دقائق وتفاصيل هذا العلم من فروض الكفاية. فاحرص على تعلم العقيدة وأصول الدين، وستجد أن نظرتك لكل شيء قد تغيرت تماما.

الأسئلة التي يجيب عليها علم أصول الدين

عند دراسة العقيدة، سنجد أنفسنا نجيب عن الأسئلة التالية:

هل حقائق الأشياء ثابتة، ويمكن الوصول للعلم بها، أم أنه لا توجد حقائق ثابتة للأشياء وكل شيء نسبي؟ ما هو تعريف العلم، وما الفرق بينه وبين الظن والوهم والشك والجهل البسيط والجهل المركب والتقليد؟ ما هو الوجود والعدم؟ ما هو حكم العادة؟ ما هي أحكام العقل على إمكانية وجود معلوم من المعلومات؟ ما هو الواجب الوجود والمستحيل الوجود والممكن الوجود؟ ما هو العالم الذي نعيش فيه ومم يتركب؟ ما هي الجواهر والأعراض؟ هل العالم موجود منذ الأزل أم وجد بعد أن لم يكن موجودا؟ ما معنى قديم وحادث، وما هو القدم والحدوث؟ ما الدليل على حدوث العالم؟ هل يحتاج العالم في وجوده لمن يوجده من العدم أم أنه موجود بنفسه؟ ما الدليل على احتياج العالم لمن يوجده من العدم؟ ما الفرق بين موجد العالم وبين سواه؟ ما هي الصفات

التي يجب أن يتصف بها موجد العالم؟ ما معنى أن يكون موجد العالم واجب الوجود؟ ما هي الصفات السلبية لموجد العالم؟ ماذا يعني أن يكون موجد العالم قديما، باقيا، قائما بنفسه، مخالفا للحوادث، واحدا في ذاته وصفاته وأفعاله؟ وما دليل كل صفة منها؟ ماذا تعني وحدانية الذات ووحدانية الصفات ووحدانية الأفعال؟ هل يوجد فاعل في هذا الكون سوى الله سبحانه وتعالى؟ ما معنى وصف الإنسان بالكسب؟ هل يصح أن يوصف الإنسان بأنه مجبر أو أنه مختار؟ ما الفرق بين عقيدة أهل السنة في أكساب العباد وبين عقيدة الذين يزعمون أن الإنسان مجبر وبين عقيدة الذين يزعمون أن الإنسان مختار؟ ما معنى أن يتصف الله بصفات المعاني؟ ما هي صفات المعاني؟ ما هي صفة الحياة؟ وما الدليل عليها؟ ما هي صفة العلم؟ وما الدليل عليها؟ ما هي صفة القدرة؟ وما الدليل عليها؟ ما هي صفة الإرادة؟ وما الدليل عليها؟ هل أرادة الله وأوامره شيء واحد أم هما شيئان مختلفان؟ هل يمكن أن يريد الله سبحانه وتعالى شيئا ويأمر بخلافه؟ هل يمكن أن يقع في العالم شيء على خلاف إرادة الله سبحانه وتعالى؟ ما هو القضاء والقدر؟ ما هي صفة الكلام؟ وما الدليل عليها؟ ما هما صفتا السمع والبصر؟ وما الدليل عليها؟ ما هو تعلق الصفات؟ بم تتعلق كل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى؟ ما الذي يستحيل في حق الله سبحانه وتعالى؟ ما هي أضداد الصفات الواجبة لله سبحانه وتعالى؟ وما الدليل على استحالة اتصافه بها؟ ما الذي يجوز في حق الله سبحانه وتعالى؟ هل يجوز في حقه سبحانه وتعالى إيجاد شيء أو تركه؟ هل يجوز في حقه تعالى إسعاد أحد أو إشقائه؟ وما معنى السعادة والشقاوة؟ هل يجب على الله سبحانه وتعالى فعل الصلاح أو الأصلح؟ هل رؤية الله سبحانه وتعالى مستحيلة؟ هل إرسال الرسل واجب على الله سبحانه وتعالى؟ وهل هو مستحيل أم أنه جائز في حقه سبحانه وتعالى؟ ما هو النبي وما الفرق بينه وبين الرسول؟ ما هي الصفات الواجب أن يتصف بها الأنبياء؟ ما هي صفة الأمانة وما الدليل عليها؟ وما معنى عصمة الأنبياء؟ ما هي صفة الصدق وما الدليل عليها؟ ما هي صفة التبليغ وما الدليل عليها؟ ما هي صفة الفطانة وما الدليل عليها؟ ما هي أضداد الصفات الواجبة للأنبياء؟ ولماذا يستحيل أن يتصفوا بها؟ ما هو الجائز في حق الأنبياء؟ هل الأكل والشرب والأمراض الغير منفرة جائزة في حق الأنبياء؟ هل يلزم الإيمان بكل ما جاء به الأنبياء؟ ما معنى الإيمان والكفر؟ ما هو البعث والنشور والعقاب والثواب والجنة والنار والحوض والصراط والميزان والحشر والأنبياء والأولياء والحور والولدان والجن والملائكة ونعيم القبر وعذابه والإسراء والمعراج وأشراط الساعة والدجال ويأجوج ومأجوج ونزول سيدنا عيسى وغيرها من الأخبار؟ كيف يندرج تحت قولنا لا إله إلا الله محمد رسول الله كل ما سبق من العقائد؟

وبعد الإجابة عن كل ما سبق، سنفهم حقيقة الهجمة الفكرية الغربية التي نحن منغمسون فيها حتى النخاع، وكيف أن الفرق التي ظهرت وانتشرت في المائة سنة الأخيرة قد تركت هذا العلم برمته واتبعت الأفكار المستوردة، وكيف أن الرد عليهم أيضا لم يكن منضبطا فصرنا نعيش بين تطرفين. والحل بالعودة للمفاهيم الأصلية التي هي الإجابة عن الأسئلة السابقة، ففيها السكون والهدوء والطمأنينة المبنية على اليقين.

حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق

تبدأ دراسة أصول الدين بمعرفة أن حقائق الأشياء ثابتة وأن العلم بها متحقق.

وخالف في ذلك قديما "السوفسطائية"، وهم ثلاث فرق:

١- العنادية، ويقولون بأنه لا توجد حقائق للأشياء أصلا وأن كل ما نراه إنما هو مثل ما يراه النائم.

٢- العندية، ويقولون بأن حقائق الأشياء نسبية وأن كل إنسان "عند" اعتقاده في الأشياء، فمن اعتقد أن النار ماء أو الماء نار كانت كذلك.

٣- اللا أدرية، وهم يقولون في كل شيء "لا أدري"، فإذا قيل لأحدهم أن هذا كرسي قالوا لا أدري، أو هذا حائط قالوا لا أدري وهكذا.

ونفي الحقائق معناه نفي العلم، فإذا لم تكن حقائق الأشياء ثابتة أصلا فلا معنى لشيء يسمى العلم كما سنفهم في تعريفنا للعلم بإذن الله. وكما نلاحظ، فإننا نعيش في عصر السفسطة الحديثة، وهو عصر نفي الحقائق وأنه لا توجد حقائق ثابتة للأشياء أصلا، وأن كل شيء نسبي ووجهات نظر. ولعلنا سمعنا كثيرا كيف أن من يتكلم في اليقين تتم السخرية منه، إذ اليقين مبني على أن حقائق الأشياء ثابتة. ولعلنا سمعنا أيضا أن مقياس الحضارة والتقدم والانفتاح إنما يقاس هذه الأيام بمقدار النسبية ونفي الحقائق. والفلاسفة الجدد نسمعهم يقولون: أنا على استعداد لقبول وجهة نظرك وعليك أن تقبل وجهة نظري، فلا توجد حقائق مطلقة. وتجد من يقول ذلك يضع رجلا فوق الأخرى، وربما أمسك بالبايب في فمه ولبس البدلة والكرافتة، وتكلم كلام الواثق من نفسه وينظر إليه على أنه العالم العلامة المثقف المفكر الكبير المنفتح على الثقافات والحضارات، وفي نفس الوقت ليس عنده ذرة يقين واحدة في أي شيء لأنه لا يعتقد

في ثبوت حقائق الأشياء أصلا. وظهرت بعد ثورة الخراب في مصر موجة سفسطة رأيتها بنفسي، ففي حوار مع بعضهم قالوا لي بالنص: لقد فقدت الثقة في كل شيء، وما أدراني أن كلام الشيخ فلان صائب وما أدراني أنه الحق، فلم أعد أثق في أي شيوخ. والحقيقة أن المشكلة ليست مشكلة ثقة في شيوخ، وإنما مشكلة عصر السفسطة الذي نعيشه وحالة من اللا أدرية بسبب كم المعلومات المغلوطة المنتشرة. ومع دراسة أول صفحة في العقيدة، ومعرفة أن حقائق الأشياء ثابتة وأن العلم بها على وجه اليقين متحقق، فهذا فتح كبير من الله سبحانه وتعالى يهدم عصر السفسطة وحالة السفسطة التي نعيشها حاليا من جذورها. ويتضح أيضا أن الكلام في العقيدة هو كلام في أصول الفكر والتفكير، ويمس الواقع بشكل مباشر، وليس كلاما في "الدين" كما يفهمه من يرى بوستات "انشرها وإلا فاعلم أن الشيطان قد منعك".

فاعلم أيها القارئ الكريم أن حقائق الأشياء ثابتة وأن العلم الجازم اليقيني بها متحقق. ولم يخالف في ذلك إلا السوفسطائية قديما وحديثا. فاهدم كل أفكار السفسطة، واستقبل العلم واليقين لحقائق الأشياء الثابتة، وهو فضل من الله ونعمة، وفتح عظيم ببركة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

تعريف العلم

عرفنا أن حقائق الأشياء ثابتة و"العلم" بها متحقق، خلافا للسوفسطائية. والآن بإذن الله سنتعرف على معنى العلم. والمقصود هو علمنا نحن، وليس علم الله سبحانه وتعالى.

العلم هو الإدراك الجازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل.

فإن لم يكن هناك إدراك أصلا فهو الجهل البسيط. وإن لم يكن الإدراك جازما فهو إما ظن أو شك أو وهم. فالظن هو تجويز أمرين أحدهما أرجح من الآخر. وإن تساوى الأمران فهو شك، وإن رجح الطرف الضعيف فهو وهم. وإن كان الإدراك غير مطابق للواقع فهو الجهل المركب. وإن كان الإدراك ناشئا عن مجرد قول الغير وليس عن دليل فهو التقليد.

فلكي يكون الإدراك علما، فلابد أن تتوفر فيه الشروط التالية:

١- أن يكون الإدراك موجودا، فإن لم يكن موجودا فهو جهل بسيط. فالجهل البسيط هو عدم الإدراك.

٢- أن يكون إدراكا جازما. والإدراك الجازم هو اليقين. فإن لم يكن يقينا فهو ظن أو شك أو وهم كما شرحنا عاليه.

٣- أن يكون الإدراك مطابقا للواقع. فإن لم يكن مطابقا للواقع فهو الجهل المركب. فالجهل المركب هو معرفة المعلوم على خلاف ما هو به في الواقع.

٤- أن يكون الإدراك ناشئا عن دليل. فإن لم يكن ناشئا عن دليل بأن كان أخذا بقول الغير دون معرفة الدليل فهو تقليد.

إذن، من تعريف العلم عرفنا أيضا تعريف الجهل البسيط، والظن والشك والوهم، والجهل المركب، والتقليد.

فالعلم إذن هو اليقين المطابق للواقع الناشئ عن دليل. فإن لم يكن كذلك فهو إما جهل بسيط أو ظن أو شك أو وهم أو جهل مركب أو تقليد. وفيما يلي بإذن الله سنتعرف على قسمي العلم وهما العلم الضروري والعلم النظري والفرق بينهما.

العلم الضروري والنظري

عرفنا أن العلم هو الإدراك الجازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل. والعلم قسمان: علم ضروري وعلم نظري.

أما العلم الضروري فهو العلم الحاصل دون الحاجة لنظر ولا استدلال، ولو أراد الإنسان أن يدفعه عن نفسه لما استطاع لذلك سبيلا. أي أن الإنسان مضطر للإقرار بالعلم الضروري، ولذلك سمي ضروريا لأنه مضطر لقبوله ولا يستطيع أن يدفعه عن نفسه. ومثال العلم الضروري أن الواحد نصف الاثنين. فهذا العلم لا يحتاج لدليل ولا نظر ولا تفكير، والإنسان مضطر للإقرار به، ولو أراد أن يقنع نفسه بأن الواحد ليس نصف الاثنين فلن يستطيع.

أما العلم النظري فهو العلم الحاصل بعد النظر والاستدلال. أي أن العلم النظري يحصل للإنسان بعد النظر في الأدلة.

ونلاحظ أن تعريف العلم الذي ذكرناه، قلنا أنه ناشئ عن دليل، فهو يختص بالعلم النظري. أما العلم الضروري فلا يحتاج للنظر في دليل أصلا كما ذكرنا عاليه.

ومثال العلم النظري علمنا بأن حاصل ضرب ٦٣ في ٥٧٤ هو ٣٦١٦٢. فهي عملية تحتاج لتفكير ونظر للحصول على النتيجة.

والعلم النظري مبني على العلم الضروري. بمعنى أننا نستخدم العلم الضروري ونضعه في خطوات، هي النظر والاستدلال، للحصول على النتيجة وهي العلم الحاصل بعد النظر والاستدلال. وبعد الحصول على النتيجة الحاصلة بعد النظر، يمكن استخدامها أيضا في خطوات أخرى للحصول على علم نظري جديد، وهكذا.

والسؤال الآن، ما هي طرق الحصول على العلم، سواء الضروري أو النظري؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

طُرُق العلم

بعد أن عرفنا أن العلم ينقسم إلى قسمين: ضروري ونظري، نتعرف الآن على طرق الحصول على العلم.

وطرق الحصول على العلم ثلاثة وهي الحس والخبر والعقل.

أما الحس، فهو الحواس الخمسة، وهي البصر والسمع والشم والتذوق واللمس. والعلم الحاصل عن طريق الحس علم ضروري.

وأما الخبر، فينقسم إلى قسمين: الخبر المتواتر وخبر الآحاد.

أما الخبر المتواتر، فهو المنقول عن جماعة كبيرة من الناس يستحيل عادة اتفاقهم على الكذب، وأن يكون مستندهم الحس.والخبر المتواتر يفيد اليقين، والعلم الحاصل بعده علم ضروري. ومثال الخبر المتواتر، الخبر الوارد إلينا عن وجود مدينة تسمى لندن. فمن لم يزر لندن، لا يشك في وجودها لأنه قد جاءه من الأخبار المتواترة عن وجود تلك المدينة وأن الناس قد زاروها ونقلوا صورها وهكذا. فيحصل عنده علم ضروري بوجود مدينة اسمها لندن.

وأما خبر الآحاد فهو المنقول عن شخص واحد أو اثنين أو أفراد قليلين لا يبلغ عددهم مبلغ التواتر. وخبر الآحاد قد يتطرق إليه الخطأ ولذلك يفيد الظن وليس اليقين. وقد يفيد خبر الآحاد اليقين لكونه محتفا بقرائن، كما هو مشروح في مواضعه.

وأما العقل، فالعلم الحاصل عن طريقه قد يأتي من طريقين: البديهة والنظر.

أما البديهة، فهي لا تحتاج إلى تفكير أو نظر أو استدلال، مثل علمنا بأن الكل أكبر من الجزء، وعلم كل واحد منا بأنه موجود وبأنه جائع أو عطشان أو خائف وهكذا، وهو علم ضروري. فالعلم البديهي علم ضروري.

وأما النظر، فهو ترتيب أمور معلومة للحصول على أمور مجهولة. والعلم الحاصل بعد النظر والتفكير والاستدلال هو علم نظري.

إذن، تلخيصا لما سبق، فإن طرق العلم ثلاثة: الحس والخبر والعقل. أما الحس فهو الحواس الخمسة، وتفيد العلم الضروري. وأما الخبر فمنه المتواتر ويفيد العلم الضروري ومنه الآحاد ويفيد الظن. وأما العقل، فمنه البديهة وتفيد العلم الضروري، ومنه النظر ويفيد العلم النظري. وفي المثل الدارج: فلان لا يوجد عنه حس ولا خبر. أي لا علم لنا به بالمرة، لا عن طريق الحس ولا عن طريق الخبر. وهذا المثل يبين أن الناس قديما كانوا يتعلمون العلم النافع، حتى انتشر وصار مثلا بينهم.

والسؤال الآن، أي طرق العلم السابقة سنستخدمه في دراسة مباحث العقيدة الثلاثة، الإلهيات والنبوات والسمعيات؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

معرفة الله سبحانه وتعالى هي أول ما يجب شرعا على المكلف

عرفنا أن طرق الحصول على العلم ثلاثة وهي الحس والخبر والعقل. وقلنا سابقا أن مباحث علم العقيدة ثلاثة وهي الإلهيات والنبوات والسمعيات. وسنجد أن مبحث السمعيات يعتمد على مبحث النبوات، لأن السمعيات هي ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من حقائق لا تثبت إلا عن طريق أخبار الوحي. فنحتاج للكلام في النبوات قبل الكلام في السمعيات. وسنجد أن مبحث النبوات يعتمد على مبحث الإلهيات، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرسل الأنبياء. فمبحث الإلهيات إذن هو أصل العقيدة، وهو المبحث المختص بمعرفة الله سبحانه وتعالى.

ولنرجع الآن للحس والخبر والعقل. هل يمكننا معرفة الله سبحانه وتعالى بالحس فقط؟ الإجابة هي لا. فليس في الحس وحده ما يمكننا من معرفة الله سبحانه وتعالى. فهل يمكننا معرفة الله سبحانه وتعالى بالخبر فقط؟ الخبر عن الله سبحانه وتعالى جاء عن طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والكلام عن النبوات فرع عن الكلام في الإلهيات، لإثبات وجود الله سبحانه وتعالى وصفاته وأنه أرسل الرسل الذين جاءوا بالأخبار عن الله سبحانه وتعالى. فالاعتماد على الخبر يكون بعد إثبات صدق الأنبياء الذين جاءوا من عند الله، وهذا بدوره متوقف على معرفة الله أولا. فلا يبقى إلا العقل بنوعيه، البديهة والنظر. فهل يمكن معرفة الله سبحانه وتعالى وصفاته بمجرد البديهة؟ الإجابة هي لا. إذ ليس في مجرد البديهة فقط ما يمكننا من معرفة الله سبحانه وتعالى. فلا يبقى إلا النظر، وبه يمكن ترتيب الأمور المعلومة من الحس والبديهة بطريقة معينة، للوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ثم إثبات النبوات ثم الأخبار التي جاء بها الأنبياء. ثم بعد ذلك نثبت السمعيات التي لا تثبت إلا بالأخبار التي جاء بها الأنبياء. إذن، النظر العقلي يستخدم البديهة والحس في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وصفاته، ثم إثبات النبوات وإثبات صدقهم بالمعجزات، ثم إثبات الأخبار التي يثبت من خلالها السمعيات.

إذن ترتيب استخدام طرق الحصول على العلم في مباحث العقيدة كالتالي:

١- النظر العقلي في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وصفاته، وذلك باستخدام الحس والبديهة كمقدمات، كما سنرى فيما يلي بإذن الله.

٢- النظر العقلي لإثبات إمكانية إرسال الرسل وصدقهم بالمعجزات، وذلك باستخدام الحس والبديهة والنتائج المأخوذة من النظر العقلي في الخطوة السابقة.

٣- الأخبار التي تثبت بناء على ما سبق، وعن طريقها نحصل على أدلة جديدة في معرفة الله سبحانه وتعالى، وعن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم عن كافة السمعيات التي لا تثبت إلا من خلال الأخبار.

ومن خلال ما سبق، نؤكد على أن أول ما يجب شرعا على المكلف هو معرفة الله سبحانه وتعالى، فهي الخطوة الأولى لمعرفة سائر العقيدة، ثم الفقه المبني على العقيدة. وتلك المعرفة لا تبدأ إلا بالنظر العقلي، فكان النظر العقلي المؤدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى هو أول ما يجب على المكلف. ومن هنا تتضح لنا أهمية النظر العقلي في العقيدة. ومحاولة نفيه أو ادعاء عدم الحاجة إليه يعرض دراسة العقيدة برمتها للخطر، وبالتالي يعرض علوم الدين والدنيا كلها للخطر والاضطراب، خصوصا في عصرنا الحاضر الذي تلقى فيه الشبهات من كافة التيارات والاتجاهات، بداية من الملحدين الذين ينكرون وجود الله أصلا، إلى منكري النبوات، إلى منكري السمعيات، إلى أصحاب الديانات الأخرى، إلى الفرق المنحرفة من المسلمين أنفسهم. وعلم العقيدة يخاطب المكلف بصفة عامة، أيا كانت ديانته وحتى لو لم يكن معترفا بالأديان أصلا، فعلم العقيدة لا يخاطب المسلمين فقط.

والسؤال الآن، من هو المكلف المخاطب بأصول الدين وفروعه وأولها معرفة الله سبحانه وتعالى؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

تعريف المكلف

قلنا سابقا إن أول ما يجب شرعا على المكلف هو معرفة الله سبحانه وتعالى. والمكلف هو البالغ، العاقل، سليم الحواس، الذي بلغته الدعوة. وسنلاحظ أن شروط المكلف تراعي قدرته على استخدام طرق العلم الثلاثة وهي الحس والخبر والعقل، والتي بمجموعها يمكن له معرفة الله سبحانه وتعالى ثم سائر أصول الدين وفروعه.

فالعقل لا يكتمل إلا بالبلوغ.والجنون غياب العقل بالمرة. والذي حواسه غير سليمة فهو فاقد للحس. والذي لم تبلغه الدعوة لا يعرف عن النبي عليه الصلاة والسلام ولا أخباره شيئا. ونلاحظ هنا أن المكلفين ليس المسلمين فقط، وإنما كل من انطبقت عليه الشروط السابقة، سواء كان ملحدا أو من أي دين كان. وأول ما يجب شرعا على المكلف هو معرفة الله سبحانه وتعالى.

والسؤال الآن، ما هي معرفة الله سبحانه وتعالى المقصودة هنا؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

المقصود بمعرفة الله سبحانه وتعالى في علم أصول الدين

عرفنا سابقا أن أول ما يجب شرعا على المكلف هو معرفة الله سبحانه وتعالى. والمعرفة المقصودة هنا هي معرفة ما يجب عقلا في حق الله سبحانه وتعالى، ومعرفة ما يستحيل عقلا في حق الله سبحانه وتعالى، ومعرفة ما يجوز عقلا في حق الله سبحانه وتعالى. والأمور الثلاثة السابقة تسمى أحكام العقل الثلاثة. أي أن معرفة الله سبحانه وتعالى هي معرفة أحكام العقل الثلاثة في حقه سبحانه وتعالى.

ومعرفة أحكام العقل الثلاثة مهم في تصحيح الفكر بصفة عامة، وليس في مجال الإلهيات والنبوات فقط. فهناك الكثير من المشاكل الفكرية الموجودة حاليا بسبب إهمال تعلم أحكام العقل. فعلى سبيل المثال، هناك أناس يرفضون أشياء ويقولون إنها غير مقبولة عقلا، وفي الحقيقة تكون مقبولة بلا أي مشاكل. وهناك أناس يصدقون خرافات باسم العلم، وهي في الحقيقة مستحيلة عقلا. وهكذا. فمعرفة أحكام العقل يضبط الفكر بصفة عامة، ويخرجه عن حالة الفوضى التي نعيشها حاليا، وفيها يصدق الناس الخرافة باسم العلم أو يكذبون الحقائق بدعوى رفض العقل لها.

والكلام عن معرفة الله سبحانه وتعالى سيكون بعد التعرف على أحكام العقل أولا. والكلام عن أحكام العقل، سيكون بعد التعرف على معنى الحكم على الأمور أولا. فقبل الشروع في الكلام عن أحكام العقل، السؤال الآن، ما معنى الحكم على أي أمر أصلا، وهل توجد أحكام أخرى غير أحكام العقل؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

أنواع الحكم

بدأنا في المقالة السابقة الكلام حول أحكام العقل الثلاثة. وقبل أن نتعرف عليها، لابد أولا أن نفهم معنى الحكم على أمر ما.

الحكم إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه.فمثلا، إذا قلنا: النار محرقة. نحن هنا أثبتنا الإحراق للنار. أي حكمنا على النار بأنها محرقة. ولو قلنا: النار ليست محرقة. فقد نفينا هنا الإحراق عن النار. أي حكمنا على النار بأنها ليست محرقة.

وأنواع الحكم ثلاثة بحسب مصدر الحكم: حكم الشرع، وحكم العادة، وحكم العقل.فإذا كان مصدر الحكم هو الشرع، قلنا إن هذا حكم شرعي. وإذا كان مصدر الحكم هو العادة، قلنا إن هذا حكم عادي. وإذا كان مصدر الحكم هو العقل، قلنا إن هذا حكم عقلي.

والسؤال الآن، ما هي الأحكام الشرعية والأحكام العادية والأحكام العقلية؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

الحكم الشرعي

تكلمنا سابقا عن أنواع الحكم وهي الحكم الشرعي والعادي والعقلي. أما الحكم الشرعي فهو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل الاقتضاء أو التخيير أو الوضع. وسمي هذا النوع من الحكم باسم الحكم الشرعي لأنه مستفاد من الشرع. والحكم الشرعي، كما نرى من خلال التعريف، هو حكم على أفعال المكلفين. وتؤول الأحكام الشرعية إلى خمسة أحكام وهي: الوجوب، والندب، والجواز، والكراهة، والتحريم.

فالواجب الشرعي هو ما يُذَم شرعا تاركه قصدا مطلقا. ويسمى أيضا باسم الفرض. والمندوب هو ما يمدح فاعله ولا يذم تاركه، ويسمى أيضا مستحب وسنة ونافلة. والجائز هو ما لا يتعلق بفعله ولا تركه مدح ولا ذم. ويسمى أيضا حلال ومباح. والمكروه هو ما يُمدَح تاركه ولا يذم فاعله. والحرام هو ما يُذَم شرعا فاعله. فعلى سبيل المثال، عندما نقول: الصلاة واجبة شرعا. أي أننا حكمنا على فعل من أفعال المكلفين وهو الصلاة، بأنه واجب شرعا. أي أن هذا الحكم على

هذا الفعل مستفاد من الشرع. وهكذا. وجدير بالذكر، أن الأحكام الشرعية لا تثبت إلا بالشرع فقط لا غير، أي من الأدلة الشرعية، ولا يستفاد الحكم الشرعي من العقل أبدا كما سنرى لاحقا بإذن الله.

والأدلة الشرعية المتفق عليها عند أهل السنة هي: القرآن والسنة والإجماع والقياس. والكلام حول الأحكام الشرعية نجده في علم مستقل اسمه علم أصول الفقه. وأحكام الأفعال التفصيلية يستنبطها الفقهاء المجتهدون من أدلتها التفصيلية، ومجال الكلام فيها هو علم مستقل اسمه علم الفقه، أو فروع الفقه.

حسنا، عرفنا ما هو الحكم الشرعي. فما هو حكم العادة؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

الحكم العادي

تعرفنا سابقا على الحكم الشرعي. أما حكم العادة، فهو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه بناء على التكرر على الحس. فمثلا، إذا قلنا إن النار تحرق الخشب، فإن الذي جعلنا نحكم على النار بأنها محرقة هو أننا رأينا النار تحرق ما تمسه مرارا وتكرارا. فبسبب هذا التكرر لرؤية النار وهي تحرق الأشياء، قلنا إن النار محرقة. ولأننا تعودنا أن نرى النار تحرق الأشياء، حكمنا على النار بأنها محرقة، وقلنا إن هذا حكم العادة، أي حكم مستفاد من التكرر على الحس وهي العادة، وقلنا إن هذا حكم عادي، أي مستفاد من العادة.

والسؤال الآن، هل العادة وحدها تثبت التأثير؟ وبمعنى آخر، من قال إن النار هي التي أحدثت الاحتراق في الخشب؟ أليس من الممكن أن يكون الاحتراق ناتج عن مؤثر آخر غير النار؟ الإجابة هي بالفعل، مجرد التكرر على الحس لا يثبت التأثير، وإنما يثبت مجرد اقتران حدوث أمرين معا، وفي المثال عاليه فإنه يثبت مجرد اقتران مماسة النار للخشب مع احتراق الخشب. فالعادة لا تثبت إلا مجرد اقتران مماسة النار لاحتراق الخشب، ولا يمكن للعادة أبدا أن تثبت تأثير النار وأنها هي التي أحدثت الاحتراق في الخشب. وعندما نتكلم في تفاصيل الإلهيات، سنجد أن النار في الحقيقة ليس لها تأثير في احتراق الأشياء بالمرة، والذي يحصل هو أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يُحدِث الاحتراق في الشيء المحترق عند مماسة النار للشيء المحترق، على سبيل العادة. وسنشرح هذا الموضوع بالتفصيل لاحقا بإذن الله.

ومجال الأحكام العادية هو كافة العلوم الدنيوية المبنية على التجربة والمشاهدة والتكرر على الحس، مثل الميكانيكا والكهرباء والطب والصيدلة وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم. والحقيقة أن قوانين الفيزياء والكيمياء وعلم الاجتماع وغيرها، هي عبارة عن أحكام عادية، أي أن الأحكام فيها مستفادة من العادة. وفهم حكم العادة بالتفصيل كما سنرى لاحقا بإذن الله، سيغير نظرتك للكثير من الأشياء تماما، ومنها كل هذه العلوم الدنيوية، وسيضبط الفكر والفهم لها كلها.عرفنا إلى الآن حكم الشرع وحكم العادة وبقي التعرف على حكم العقل.

والسؤال الآن، ما هو حكم العقل وما هي الأحكام العقلية الثلاثة؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

الحكم العقلي وأقسامه

تعرفنا سابقا على الحكم الشرعي والحكم العادي. أما الحكم العقلي فهو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه دون استناد إلى شرع أو عادة. أي أن الحكم العقلي مستفاد من العقل فقط، ولا يستند إلى شرع أو عادة. أي أنه ليس حكما مبنيا على ما جاء في أخبار الوحي ولا على ما يتكرر على الحس. والأحكام العقلية ثلاثة، وهي:الوجوب، والاستحالة، والجواز.

أما الواجب العقلي فهو ما لا يقبل العدم لذاته. وأما المستحيل العقلي فهو ما لا يقبل الوجود لذاته. ويسمى أيضا الممتنع العقلي. وأما الجائز العقلي فهو ما يقبل الوجود والعدم. ويسمى أيضا الممكن العقلي. وكما نرى من خلال تعريف الحكم العقلي، ومن خلال تعريف الواجب والمستحيل، فإن الواجب الوجود موجود، ويستحيل أن ينعدم أزلا وأبدا، لذاته، أي بغض النظر عن خبر الوحي أو التكرار على الحس. وكذلك المستحيل الوجود، فإنه معدوم، ويستحيل أن يوجد أزلا وأبدا، لذاته، أي بغض النظر عن خبر الوحي أو التكرار على الحس. أما الممكن الوجود، فوجوده ممكن حتى ولو لم يوجد من قبل، وكذلك عدمه ممكن حتى ولو كان موجودا. ولأهمية الأحكام العقلية، سنتكلم عن كل واحد منها فيما يلي بإذن الله.

الحكم العقلي حكم على إمكانية وجود معلوم ما

بدأنا سابقا الكلام على الأحكام العقلية. والسؤال الآن، الحكم العقلي حكم على ماذا؟ والإجابة أن الأحكام العقلية أحكام على إمكانية وجود معلوم معين لذاته بغض النظر عن أخبار الوحي أو التكرر على الحس. أي أننا نسأل أنفسنا: ما إمكانية وجود المعلوم الفلاني لذاته؟ فتكون الإجابة هي أحد الأحكام العقلية الثلاثة، أي أن ذلك المعلوم: إما واجب الوجود بحيث لا يمكن أن نتصور عدمه أصلا، أو مستحيل الوجود بحيث لا يمكن أن نتصور وجوده أصلا، أو ممكن الوجود، بحيث يمكن أن نتصور وجوده ويمكن أن نتصور عدمه. إذن، الأحكام العقلية أحكام على إمكانية وجود معلوم معين لذاته. وفيما يلي بإذن الله سنذكر مثالا لكل حكم عقلي على حدة حتى نفهم الأحكام العقلية بشكل أكثر وضوحا.

الوجود والعدم

لاحظنا أثناء كلامنا عن الأحكام العقلية أننا استخدمنا مصطلحي الوجود والعدم، وهما من المصطلحات التي لابد من معرفتها جيدا قبل المضي قدما في دراسة العقيدة. وذلك لأن الدارس للعقيدة لأول مرة سيفاجأ بمفاهيم جديدة لمعنى الوجود والعدم لم تكن تخطر على باله أبدا. فعلى سبيل المثال، الناس معتادة على مفهوم وجود الذوات، مثل محمد وأحمد وعلي والكرسي والحائط والباب والفرس والجن والملائكة وما إلى ذلك.

ولكن، هل توجد أشياء أخرى غير الذوات؟ الإجابة هي نعم، توجد أشياء أخرى موجودة وهي الصفات، مثل الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والألوان والطعوم والروائح والأصوات وغيرها. وفكرة وجود الصفات وعدمها تعد فكرة جديدة تماما على الدارس للعقيدة لأول مرة. فعلى سبيل المثال، عندما نرى زيدا يتحرك، فنحن في الحقيقة نرى شيئين وليس شيئا واحدا، وهما:

١- الشيء الأول الذي نراه هو زيد نفسه. وهذا هو ما اعتاد الناس عليه. فإذا سئل شخص يرى زيدا: هل زيد موجود أم معدوم؟ فسيجيب بكل ثقة أن زيدا موجود.

٢- والشيء الثاني هو حركة زيد. وهذا هو المفهوم الجديد الذي يفاجأ به الدارس للعقيدة لأول مرة. فإذا ما سألت شخصا يرى زيدا وهو يتحرك: هل حركة زيد موجودة أم معدومة؟ فسيستغرب السؤال أصلا. وهل يقال عن الحركة أنها موجودة أم معدومة؟ فالحركة ليست ذاتا وإنما هي صفة، فكيف تكون الصفة موجودة أو معدومة؟ فهذا أمر لم نعتد عليه، وهو مفهوم جديد.

وللإجابة عن السؤال السابق، فلنتصور الآن أن زيدا قد توقف عن الحركة. فأين ذهبت حركة زيد؟ الإجابة أنها كانت موجودة ثم صارت معدومة. إذن، الحركة رغم أنها صفة، إلا أنها قد تكون موجودة وقد تكون معدومة. فعلينا إذن أن نتعود على مفهوم الوجود والعدم الحقيقي، وهو أن الوجود والعدم لا يطلق على الذوات فقط كما يفهم غير الدارس للعقيدة، وإنما يطلق على الصفات أيضا. فعندما نرى تحرك زيد، فإننا نرى شيئين موجودين وليس شيئا واحدا: نرى زيدا، ونقول إن زيدا موجود، ونرى الحركة ونقول إن الحركة موجودة ومحل وجودها زيد.

وعندما يتوقف زيد عن الحركة، فنقول عندها إن الحركة معدومة بعد أن كانت موجودة في زيد. وسنلاحظ أنه بدل الحركة، قد اتصف زيد بصفة السكون، فسنرى عندها شيئين أيضا وهما: سنرى زيدا، وسنرى سكون زيد. إذن السكون أيضا صفة يقال عنها أنها موجودة أو معدومة.

فعندما كان زيد متحركا، كانت حركته موجودة، وكان سكونه معدوما. ثم لما توقف زيد عن الحركة، صارت حركته معدومة وصار سكونه موجودا. فالوجود والعدم إذن يطلقان على الذوات والصفات، وليس على الذوات فقط. وسنفهم هذا الأمر بالتفصيل كلما تقدم بنا الفهم في علم أصول الدين الذي يصحح الفكر والفهم للدين والدنيا.

ولنعد مرة أخرى لأحكام العقل الثلاثة ونضرب عليها أمثلة بعد أن فهمنا أن الوجود والعدم يطلقان على الذوات والصفات وليس على الذوات فقط. والأمثلة فيما يلي بإذن الله.

أمثلة على أقسام الحكم العقلي

والآن مع أمثلة الأحكام العقلية الثلاثة. وسنستخدم الحركة والسكون في الجسم لتكون الأمثلة كلها على نمط واحد. أما مثال الواجب العقلي، فوجود إما الحركة وإما السكون، أحدهما لا بعينه، في الجسم. وأما مثال المستحيل العقلي، فاجتماع الحركة والسكون معا في الجسم، أو خلو الجسم عنهما معا. وأما مثال الممكن العقلي، فوجود الحركة أو السكون في الجسم. ونلاحظ في الأمثلة، أن الأحكام العقلية الثلاثة المذكورة غير متوقفة على تكرر على الحس ولا على خبر الوحي. فيجب لكل جسم عقلا، أن يكون متصفا إما بالحركة وإما بالسكون، أحدهما لا بعينه، إذ لا يتصور عقلا أن يكون الجسم لا متحرك ولا ساكن. فالجسم لا يقبل عدمهما معا. ويستحيل أن تجتمع الحركة والسكون معا في الجسم، كما يستحيل أن يخلو الجسم منهما معا، إذ لا يتصور عقلا أن يجتمعا كما لا يتصور عقلا خلو الجسم منهما معا. فالجسم لا يقبل وجودهما معا ولا خلوه منهما معا. ويمكن أن يتصف الجسم بالحركة، كما يمكن أن يتصف بالسكون. فكلاهما متصور بالنسبة للجسم. فالجسم يقبل الحركة كما يقبل السكون.

وفيما يلي بإذن الله نبدأ في الكلام عن معرفة الله سبحانه وتعالى، وهي معرفة ما يجب وما يستحيل وما يمكن في حق الله سبحانه وتعالى.

الإلهيات

مقدمة مبحث الإلهيات

بدأنا الكلام الآن في مبحث الإلهيات، أي معرفة الله سبحانه وتعالى، وسيكون ترتيب الكلام كالتالي:

١- هل العالَم موجود منذ الأزل، أم وُجد بعد أن لم يكن موجودا؟

٢- فإن وجد بعد أن لم يكن موجودا، فهل وجد بنفسه أم يحتاج لمن يوجده من العدم؟

٣- فإن احتاج لمن يوجده من العدم، فما الفرق بين خالق العالم وبين سواه؟

إذن، ترتيب الكلام في مبحث الإلهيات هو الإجابة عن الأسئلة السابقة كالتالي:

١- الدليل على أن العالم وجد بعد العدم.

٢- الدليل على احتياج العالم لمن يوجده من العدم.

٣- معرفة ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق موجد العالم من العدم وهو الله سبحانه وتعالى، لمعرفة الفرق بين الله سبحانه وتعالى وكل ما سواه.

ونلاحظ مما سبق، أن الطريق لمعرفة الله سبحانه وتعالى في علم العقيدة هو النظر العقلي في العالم الذي نعيش فيه وتأمله. والنظر العقلي مأمور به في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى: "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق" وغيرها من الآيات التي تأمر بالتفكر في هذا العالَم. ويقول الله سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عندما كان يحاج قومه: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه". فانظر كيف نسب الحجة والدليل العقلي لنفسه لشرف هذا العلم. ويقول سبحانه وتعالى في وجوب اكتساب العلم بأمور العقيدة: "فاعلم أنه لا إله إلا الله". فهذا أمر بتعلم معنى "لا إله إلا الله"، فهو أمر بتعلم الإلهيات والنبوات والسمعيات، وذلك لأن "لا إله إلا الله" اختصار لكلمة الإسلام التي تتضمن "محمد رسول الله" وهو مبحث النبوات، وكل ما جاء به الرسول في الوحي وهو مبحث السمعيات.

وفيما يلي بإذن الله نتعرف على الخطوة الأولى في النظر العقلي بذكر الدليل على أن العالم وجد بعد أن لم يكن موجودا. وفي أثناء ذلك سنتعرف على مصطلحات ومفاهيم جديدة علينا، نسمعها لأول مرة من خلال علم العقيدة، تضبط الفكر بصفة عامة.

القِدَم والحدوث

قلنا سابقا إن النظر العقلي في هذا العالم الذي نعيش فيه، هو الطريق الذي سنستخدمه في بداية دراستنا لمباحث العقيدة. والعالَم هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى. وسمي العالَم بهذا الاسم لأنه علامة على خالقه سبحانه وتعالى. فالنظر العقلي في العالم يعرفنا بخالقه سبحانه وتعالى.

وأول خطوات هذا النظر، الإجابة على السؤال التالي: هل العالم موجود منذ الأزل أم أنه وجد بعد أن لم يكن موجودا؟ وبعبارة أخرى، هل العالم قديم أم حادث؟ ولفهم هذا السؤال، لابد من تصور معنى القِدَم والحدوث.

أما الحدوث، فهو أن يوجد الشيء بعد العدم. أي أن يوجد بعد أن لم يكن موجودا من قبل. فيقال مثلا، حدثت حركة زيد، أي وجدت بعد أن لم تكن موجودة. وعندها نقول إن حركة زيد حادثة.

وأما القِدَم فهو ضد الحدوث، أي أن يكون الشيء موجودا لا بعد عدم. أي لم يكن معدوما أبدا. ويقال عندها إن هذا الشيء قديم، أي موجود لا بعد عدم.

وبعد أن عرفنا معنى القدم والحدوث، نستطيع الآن فهم سؤال: هل العالم قديم أم حادث؟ أي أننا نحاول أن نفهم، هل العالم قديم، فهو موجود منذ الأزل ولم يكن معدوما أبدا، أم أنه حادث، أي كان معدوما ثم وجد بعد العدم؟ والإجابة عن هذا السؤال ليست بديهية، بل تحتاج إلى نظر وتفكير. إذن سنستخدم النظر العقلي للإجابة على هذا السؤال.

ولكي نصل للإجابة، لابد أن نسأل أنفسنا سؤالا وهو: ما هي مكونات العالَم؟ فإذا وصلنا إلى أن مكونات العالم حادثة، إذن العالم بأكمله حادث، لأن المركب من الحوادث لابد أن يكون هو أيضا حادث. وهذا ما سنفهمه فيما يلي بإذن الله.

الجواهر والأعراض

ولنبدأ الآن في التعرف على العالم الذي نعيش فيه، فإذا نظرنا حولنا فسنجد الأرض والسماء والنجوم والكواكب والبحار والأنهار والريح والمطر والثلج والنار والبشر والحيوانات والنباتات والجن والملائكة والجبال والمباني والأثاث وأشياء كثيرة جدا. وكما ذكرنا من قبل، فكل ما سبق هي ذوات الأشياء، وتوجد أشياء أخرى نراها حولنا وهي صفات الأشياء، مثل الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والروائح والطعوم والأصوات والضوء والحرارة والبرودة والنعومة والخشونة والثقل والخفة وغيرها من الصفات الموجودة في ذوات الأشياء وندركها بالحواس الخمس، بالإضافة لما يدركه كل إنسان منا في نفسه مثل الحياة والقدرة والعجز والإرادة والعلم والجوع والشبع والعطش والري والخوف والغضب والحب والكره والألم وغير ذلك. فكل ما سبق هي مكونات هذا العالم. فإذا أردنا أن نقسم العالم بشكل تجريدي، سنجد أنه ينقسم إلى قسمين من الأشياء:

١- كل ما يقوم بنفسه ويشغل حيزا من الفراغ. وهي ذوات الأشياء في العالم الذي نعيش فيه.

٢- وكل ما لا يقوم بنفسه، وإنما يحل في المتحيز، أي يحل في الأشياء التي تشغل حيزا من الفراغ. وهي صفات الأشياء في العالم الذي نعيش فيه.

والقسم الأول، إذا كان قابلا للانقسام، فهو الجسم. وإن لم يكن قابلا للانقسام فهو الجوهر. والقسم الثاني هو العَرَض. وسمي العرض بهذا الاسم لأنه يعرض للذوات ولا يبقى وإنما يتغير باستمرار.

إذن، العالم بكل ما فيه يتكون من التالي:

١- الجواهر ومفردها جَوْهَر. وهو المتحيز القائم بنفسه. وهي ذوات الأشياء.

٢- الأعراض، ومفردها عَرَض، وهو الذي يحل في الجواهر ولا يقوم بنفسه أبدا. وهي صفات الأشياء.

والجسم هو ما تألف من جوهرين فأكثر.

ولا يوجد في هذا العالم شيء غير الجواهر والأعراض. وكما قلنا سابقا، العالَم هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى. فالله سبحانه وتعالى ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض، كما سنعرف بالتفصيل لاحقا بإذن الله.

الخطوة التالية ستكون إثبات حدوث الجواهر والأعراض. فإذا كانت الجواهر والأعراض حادثة، فالعالم كله حادث لأنه مركب من الجواهر والأعراض، والمركب من الحوادث فهو بالضرورة حادث أيضا. وهو ما سنتعرف عليه بالتفصيل فيما يلي بإذن الله.

العالَم حادث

عرفنا سابقا أن العالَم، الذي هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى، يتركب من الجواهر والأعراض، ولا شيء غير ذلك. والآن بإذن الله سنرى إذا ما كانت الجواهر والأعراض قديمة أم حادثة. وسنبدأ أولا بالأعراض. والأعراض، كما نشاهدها أمام أعيننا، فإنها متغيرة. فنحن نرى الأجسام تارة تكون متحركة، وتارة تكون غير متحركة. فالحركة تتغير بين الوجود والعدم. وكذلك نرى بعض الأجسام متحركة وبعض الأجسام ساكنة. ونرى الهواء من حولنا تارة يكون حارا وتارة يكون باردا. وكذلك في الطعوم والروائح والألوان والأصوات وغير ذلك مما ذكرناه سابقا. فكل الأعراض متغيرة بين الوجود والعدم. والذي يتغير بين الوجود والعدم يستحيل أن يكون قديما، ولابد أنه حادث، أي وجد بعد العدم. فالأعراض كلها إذن حادثة، إذ لا فرق بين عرض وآخر من حيث كونه عرض.

والأعراض لا تنفك أبدا عن الجواهر، لأننا قلنا سابقا إن الأعراض لا تقوم بنفسها أبدا، وإنما لابد لها من محل تحل فيه وهي الأجسام والجواهر. فلا يتصور عقلا أبدا أن نرى حركة بدون جسم متحرك. ولا أن نرى لونا بدون جسم ملون، ولا أن نتذوق طعما بدون جسم له طعم، وهكذا. فالأعراض يستحيل عقلا أن تنفك عن الجواهر، ويستحيل عقلا أن توجد بنفسها بغير جوهر تحل فيه.

وبما أن الأعراض حادثة، وبما أن الأعراض لا تنفك عن الجواهر، إذن الجواهر أيضا حادثة. لأن ما لا ينفك عن الحادث فهو حادث. فالأعراض يستحيل أن توجد بلا جواهر، والجواهر يستحيل أن توجد بلا أعراض. ولو حاولنا تصور جوهر خال عن كافة الأعراض لما استطعنا إلى ذلك سبيلا. فعلى الأقل سنجد جوهرا إما متحرك وإما ساكن. وعلى الأقل سنجد جوهرا إما مجتمعا وإما مفترقا.

والاجتماع هو أن يوجد جوهران بحيث لا يمكن أن يتوسطهما ثالث. والافتراق هو أن يوجد جوهران بحيث يمكن أن يتوسطهما ثالث.

وبما أن الجواهر والأعراض حادثة، وبما أن العالم مركب من الجواهر والأعراض فقط لا غير، إذن العالم حادث، لأن المركب من الحوادث حادث.

ويمكن صياغة هذا البرهان في شكل مقدمتين ونتيجة كالتالي:

العالم متغير، وكل متغير حادث، إذن العالم حادث.

١- المقدمة الأولى: العالم متغير،

٢- المقدمة الثانية: كل متغير حادث،

٣- فتكون النتيجة: العالم حادث.

أما كون العالم متغير فلأن الأعراض متغيرة بين الوجود والعدم، ولأن الأعراض لا تنفك عن الجواهر، فالجواهر إذن متغيرة بين الوجود والعدم، إذن العالم بجواهره وأعراضه متغير بين الوجود والعدم. وأما كون كل متغير حادث، فلأن ما ثبت قدمه فقد استحال عدمه. لأن القديم بحسب التعريف يستحيل أن يكون مسبوقا بالعدم. ونحن نشاهد العرض يوجد بعد العدم أمام أعيننا، فيستحيل أن يكون قديما. إذن، النتيجة الحتمية للمقدمتين السابقتين أن نقر بأن العالم حادث، أي وجد بعد العدم.

والسؤال التالي هو، هل حدث بنفسه أم يحتاج لمن يُحدثه، أي يخرجه من العدم للوجود؟ والإجابة فيما يلي بإذن الله.

دليل حدوث العالم

أثبتنا في المقالة السابقة أن العالم حادث. والآن نريد أن نعرف، هل حدث بنفسه أم يحتاج لمن يُحدثه؟ قلنا سابقا إن المعلوم إما أن يكون واجب الوجود، وإما أن يكون مستحيل الوجود، وإما أن يكون ممكن الوجود. وبما أننا أثبتنا أن العالم حادث، أي وجد بعد العدم، فهل يصح أن يقال أنه واجب الوجود؟ الإجابة هي لا. لأن الواجب الوجود هو الذي لا يُتصور عدمه أصلا. فهل العالم مستحيل الوجود؟ بالتأكيد لا، لأننا نعيش فيه، فهو موجود بكل تأكيد. فهل وجود العالم من قبيل الممكنات؟ الإجابة هي بالتأكيد نعم، لأننا أثبتنا أن العالم حادث، أي وجد بعد العدم، فنستطيع تصور وجوده وتصور عدمه. فالعالَم إذن من الممكنات العقلية. والممكن العقلي قد يوجد وقد لا يوجد، فله طرفان هما الوجود والعدم.

فهل أحد الطرفين راجح بنفسه على الآخر أم أنهما متساويان في الرجوح بالنسبة للممكن؟

وهناك ثلاثة احتمالات للإجابة بالنسبة للممكنات، وهي:

١- أن يكون العدم راجحا على الوجود بنفسه.

٢- أن يكون الوجود راجحا على العدم بنفسه.

٣- أن يكون طرفا الوجود والعدم متساويان فلا رجحان لأحدهما على الآخر بنفسه.

أما لو رجح العدم على الوجود بنفسه فلا يمكن أن يوجد العالم أصلا. ولو رجح الوجود على العدم بنفسه لما تصورنا عدم العالم. فلا يبقى إلا أن نقول أن طرفي الوجود والعدم بالنسبة للممكنات كلاهما متساويان من حيث الرجحان، فلا يرجح أحدهما على الآخر بنفسه أبدا. ولو رجح أحد الطرفين بنفسه للزم الترجيح بلا مرجح. أي أن يكون الوجود راجحا على العدم بنفسه ومساويا له في نفس الوقت، وهو مستحيل عقلا لاجتماع الضدين. إذن العالم يحتاج لمن يرجح طرف الوجود على طرف العدم، ليخرجه من العدم إلى الوجود.

وهناك من يرى أن احتياج الحادث لمن يُحدثه أمر بديهي ولا يحتاج لنظر ولا استدلال. وذلك لأن كل أثر يحتاج لمؤثر، وهو أمر بديهي لا يحتاج لدليل ولا برهان.

فيمكننا إذن أن نصيغ برهان احتياج العالم لمن يحدثه في صورة مقدمتين ونتيجة كالتالي:

العالم حادث، وكل حادث يحتاج لمن يحدثه، إذن العالم يحتاج لمن يحدثه.

١- المقدمة الأولى: العالم حادث.

٢- المقدمة الثانية: كل حادث يحتاج لمن يحدثه.

٣- فتكون النتيجة: العالَم يحتاج لمن يُحدِثه.

أما كون العالم حادث، فقد أثبتناه في المقالة السابقة. وأما كون كل حادث يحتاج لمن يحدثه، فلاستحالة اجتماع الضدين بتساوي طرفي الممكن وفي نفس الوقت رجحان أحدهما على الآخر وهو الوجود على العدم بلا مرجح. أو لأن تلك المسألة بديهية ولا تحتاج لبرهان. فتكون النتيجة أن العالم يحتاج لمن يُحدِثه. فمُحدث العالَم إذن موجود.

وهذا البرهان على وجود الخالق للعالَم، يسمى باسم "دليل حدوث العالم". ومن هنا قيل إن العالَم سمي بهذا الاسم لأنه علامة على خالقه. وكما قال الأعرابي: البعرة تدل على البعير والطريق يدل على المسير، فكيف بسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

والسؤال الآن، ما الفرق بين مُحدِث العالم وبين سواه؟ أم أنه لا فرق بين العالَم وبين مُحدِثه؟ والإجابة عن هذا السؤال هي معرفة الفرق بين الخالق سبحانه وتعالى وبين العالَم المخلوق الذي هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى. أي أن الإجابة عن هذا السؤال هي معرفة الله سبحانه وتعالى، أي معرفة ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه سبحانه وتعالى. وهو ما سنعرفه بالتفصيل فيما يلي بإذن الله.

معرفة الفرق بين الخالق والمخلوق

تعرفنا سابقا على دليل وجود الخالق للعالم، ويسمى هذا الدليل باسم "دليل حدوث العالَم". وصياغته كالتالي: العالم حادث، وكل حادث يحتاج إلى مُحدِث، إذن العالَم يحتاج إلى مُحدِث. إذن خالق العالَم موجود، ونحتاج الآن للتعرف عليه، لمعرفة الفرق بين الخالق والمخلوق. والتعرف على خالق العالم إنما يكون بمعرفة ثلاثة أشياء:

١- الصفات الواجبة له سبحانه وتعالى.

٢- الصفات المستحيلة في حقه سبحانه وتعالى.

٣- الممكنات في حقه سبحانه وتعالى.

وهي ما قلناه من قبل من معرفة ما يجب، وما يستحيل وما يجوز في حقه سبحانه وتعالى. وترتيب الكلام في المقالات القادمة بإذن الله سيكون بالإجابة على الأسئلة التالية:

١- هل وجود الخالق مثل وجود المخلوق، أم أنهما يختلفان عن بعضهما؟

٢- هل يمكن أن يكون الخالق مثل المخلوق ولو من أي وجه كان، أم أن الخالق مغاير للمخلوق من كل وجه؟

٣- ما هي الصفات الواجب وجودها في الخالق حتى يصح منه الخلق؟

٤- ما هي الصفات التي يستحيل أن يتصف بها الخالق؟

٥- ما هو الجائز في حق الخالق سبحانه وتعالى؟

والإجابة ستكون فيما يلي بإذن الله.

الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، وتعريف الدَّوْر والتَّسَلْسُل

بعد أن ذكرنا الدليل على وجود خالق العالَم سبحانه وتعالى، السؤال الآن هو: بما أن الخالق موجود، فهل وجوده واجب أم ممكن؟ وبمعنى آخر، بما أننا أثبتنا وجود الخالق سبحانه وتعالى، إذن فهو ليس مستحيل الوجود، فلا يبقى إلا أحد احتمالين:

١- إما أن يكون واجب الوجود فلا يتصور عدمه أصلا.

٢- وإما أن يكون ممكن الوجود فيتصور وجوده كما يتصور عدمه.

فلو كان ممكن الوجود، لاحتاج لمرجح يخرجه من العدم للوجود. والمرجح لو كان هو الآخر ممكن الوجود لاحتاج لمرجح، وهكذا. فلو كان الأمر كذلك لوقعنا في أحد أمرين، وكلاهما مستحيل عقلا: إما الدَّوْر، وإما التسلسل. فما هو الدور وما هو التسلسل؟

أما الدور، فهو أن يكون عندنا أمرين، يتوقف وجود كل منهما على وجود الآخر. فمثلا، زيد يتوقف وجوده على وجود عمرو، وعمرو يتوقف وجوده على وجود زيد. فستكون النتيجة أن لا يوجد عمرو ولا زيد. وبما أنهما موجودان بالفعل إذن الدور باطل ومستحيل عقلا.

وأما التسلسل، فهو أن يتوقف وجود أمر ما على وجود أمر آخر، وأن يتوقف وجود الأمر الآخر على وجود ثالث، وهكذا إلى ما لا نهاية. فستكون النتيجة أنه لا يمكن أن يوجد أي من تلك الأمور أصلا. وبما أنها موجودة إذن التسلسل باطل ومستحيل عقلا.

ولفهم الدور والتسلسل، دعونا نضرب المثالين التاليين.

أما مثال الدور، فنحن نرى زيدا وعمرا يتسابقان في مسابقة للجري. فجاءنا شخص وقال: أتدرون كيف بدأت هذه المسابقة؟ وقف زيد وعمرو عند خط البداية، فقال زيد لعمرو: لن أجري إلا بعد أن تجري أنت. وقال عمرو لزيد: وأنا لن أجري قبل أن تجري أنت. فزيد ينتظر عمرا حتى يجري أولا ليجري هو بعده، وعمرو ينتظر زيدا ليجري أولا ليجري هو بعده. فهل سنرى مسابقة تجري أصلا بين زيد وعمرو؟ الإجابة هي لا، مستحيل أن تجري المسابقة أصلا. إذن، الدور مستحيل عقلا، لأننا نرى زيدا وعمرا يتسابقان بالفعل.

وأما مثال التسلسل، فنحن نرى مجموعة كبيرة من المتسابقين في مسابقة للجري. وجاءنا شخص يخبرنا بقصة بداية المسابقة كالتالي: وقف المتسابق الأول وقال للثاني: لن أجري إلا بعد أن تجري أنت. وقال الثاني للثالث: لن أجري إلا بعد أن تجري أنت. وهكذا انتظر كل واحد من المتسابقين شخصا آخر أن يجري أولا لكي يجري هو، إلى ما لا نهاية. فهل سنرى مسابقة للجري أصلا؟ الإجابة هي لا، مستحيل أن تقع المسابقة أصلا. ولكننا نرى المسابقة تجري بالفعل، إذن التسلسل مستحيل عقلا.

ونعود مرة أخرى لمسألة وجود خالق العالم. فلو كان خالق العالم ممكن الوجود، لاحتاج لمن يوجده، ويكون الكلام في الثاني مثل الكلام في الأول، أي لو كان الثاني أيضا ممكن الوجود لاحتاج لمن يوجده، فلو كان ألأول لوقعنا في الدور، ولو كان ثالث ورابع إلى ما لا نهاية لوقعنا في التسلسل. إذن، خالق العالم يجب له الوجود، أي أن خالق العالم وجوده واجب، أي أن خالق العالم واجب الوجود. فالله سبحانه وتعالى واجب الوجود، فلا يتصور عدمه أصلا. ولو كان ممكن الوجود لوقعنا في الدور أو التسلسل وكلاهما مستحيل عقلا. إذن، وجود الله سبحانه وتعالى واجب لا يتصور عدمه أصلا، ووجود ما سواه ممكن فيتصور وجوده كما يتصور عدمه. وهذه هي أول صفة تعرفنا عليها من صفات الله سبحانه وتعالى، وهي أنه واجب الوجود.

وصفة الوجود تسمى صفة نفسية، بمعنى أن الوجود هو نفس الموجود. فالوجود ليس أمرا زائدا على ذات الموجود، وإلا احتاج الوجود في وجوده لوجود آخر وهكذا، ونقع في التسلسل المستحيل عقلا.

عرفنا إذن أن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، فهو يختلف عن كافة الممكنات التي وجودها ممكن. والسؤال الآن، هل يمكن أن يشبه الممكنات من أي وجه كان، أم أنه سبحانه وتعالى مغاير لها من كل وجه؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

الصفات السلبية

عرفنا سابقا أن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، فلا يتصور عدمه أصلا. بينما وجود المخلوقات ممكن، إذ يمكن تصور وجودها وعدمها. والسؤال الآن، هل يمكن أن يشبه الحوادث من أي وجه كان، أم أنه سبحانه وتعالى مغاير لها من كل وجه؟ والإجابة أنه لو كان يشبه الحوادث من أي وجه كان، لكان حادثا مثلها، ولاستحال أن يكون مُحدِثا لها وإلا وقعنا في الدور أو التسلسل كما شرحنا من قبل. فلو كان مُحْدِث الحوادث هو أيضا حادث، لاحتاج هو الآخر لمن يُحْدِثه، وهكذا، فيلزم الدور أو التسلسل وكلاهما مستحيل عقلا كما شرحنا من قبل. فلابد إذن أن يكون مُحْدِث العالَم مغايرا للحوادث من كل وجه، أي أنه يجب له أن يتصف بما يلي: القِدَم بالذات، والبقاء، والقيام بالنفس، ومخالفة الحوادث، ووحدانية الذات والصفات والأفعال.

وتلك الصفات الخمسة تسمى باسم "الصفات السلبية"، وذلك لأن معناها سلب لوازم الحدوث عن الله سبحانه وتعالى. وبعبارة أخرى، تنزيه الله سبحانه وتعالى عن النقائص وهي مشابهة الحوادث. أي تنزيهه سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقات الحادثة، أي تنزيهه سبحانه وتعالى عن أن يكون جوهرا أو جسما أو عرضا، أو أن يكون مشابها لأي منها من أي وجه كان. فالصفات الخمسة السابقة هي صفات تنزيه لله سبحانه وتعالى عن أن يشبه شيئا من المخلوقات. وذلك لأن خالق العالَم يستحيل أن يكون حادثا وإلا لزم الدور أو التسلسل كما شرحنا سابقا. وفيما يلي بإذن الله نتحدث عن كل صفة منها بالتفصيل.

القِدَم بالذات

بدأنا سابقا الكلام عن الصفات السلبية لله سبحانه وتعالى. وأول هذه الصفات "القِدَم بالذات"، وهو سلب أولية الوجود، أي سلب أسبقية العدم لوجوده سبحانه وتعالى. أي أنه سبحانه وتعالى قديم لا أول لوجوده، فوجوده سبحانه وتعالى ليس مسبوقا بالعدم، فهو ليس حادثا مثل الحوادث. والقِدَم بالذات معناه أيضا أنه ليس قديما بغيره. والقِدَم بالغير أثبته الفلاسفة للعالَم، فقالوا إن العالم قديم بغيره لأنه معلول وأن الله سبحانه وتعالى هو علة وجوده. فالعلة والمعلول يوجدان معا، مع انخفاض رتبة المعلول عن العلة. وقد أثبتنا من قبل أن العالم حادث، فلا هو قديم بذاته ولا قديم بغيره كما تقول الفلاسفة. وليس عند أهل السنة شيء قديم بغيره أصلا، ولا يوجد قديم بذاته إلا الله سبحانه وتعالى. ففائدة إضافة كلمة "بالذات" لصفة القِدَم هو الرد على من يتوهم أن الله سبحانه وتعالى قديم بغيره. والله سبحانه وتعالى واجب الوجود، ويلزم من كونه واجب الوجود أن يستحيل عدمه أزلا وأبدا. فمن لوازم كونه واجب الوجود اتصافه سبحانه وتعالى بالقِدَم، وهو أنه غير مسبوق بالعدم، ولا أول لوجوده. ومن لوازم كونه واجب الوجود أيضا اتصافه سبحانه وتعالى بالبقاء. وهي الصفة الثانية من الصفات السلبية وسنشرحها فيما يلي بإذن الله.

البقاء

قلنا سابقا إن كون الله سبحانه وتعالى واجب الوجود يلزم منه وصف الله سبحانه وتعالى بالقِدَم والبقاء. وقد تعرفنا على القِدَم سابقا. أما البقاء فهو سلب طروء العدم، أي سلب آخرية الوجود. أي أن الله سبحانه وتعالى موجود ويستحيل أن يطرأ عليه العدم أبدا، فهو سبحانه وتعالى باقٍ إلى الأبد، ولا آخِر لوجوده ولا نهاية ولا انقطاع لوجوده سبحانه وتعالى. أما الحوادث، فقد يطرأ عليها العدم، فتصير معدومة بعد أن كانت موجودة، أي يكون لوجودها آخِر. ولو طرأ عليه العدم لصار حادثا مثل الحوادث، ولوقعنا في الدور والتسلسل كما شرحنا من قبل. ومن ثبت له القِدَم، استحال عليه العدم. لأنه لو جاز عليه العدم لكان حادثا مثل الحوادث. فالله سبحانه وتعالى واجب الوجود، قديم، باقٍ. وقد جاء في القرآن الكريم: "هو الأول والآخِر"، أي أنه سبحانه وتعالى الأول الذي لا افتتاح لوجوده، والآخِر الذي لا انتهاء ولا انقطاع لوجوده. وفيما يلي بإذن الله نتكلم عن الصفة السلبية الثالثة وهي القيام بالنفس.

القيام بالنفس

الصفة الثالثة من الصفات السلبية هي القيام بالنفس، وهي سلب الافتقار والاحتياج للغير. أي أن الله سبحانه وتعالى لا يفتقر لغيره ولا يحتاج لغيره أبدا، بل هو سبحانه وتعالى قائم بنفسه وليس قائما بغيره. وسلب الافتقار للغير معناه سلب الافتقار لأمرين: سلب الافتقار للمَحَلّ، وسلب الافتقار للمُخَصِّص. فالقيام بالنفس هو سلب الافتقار للمحل والمخصص.

أما سلب الافتقار للمحل، فمعناه أن الله سبحانه وتعالى ليس صِفَةً بحيث يحتاج لذات لكي يكون سبحانه وتعالى صفة لها. فالله سبحانه وتعالى ليس صفة، بل هو ذات قائم بنفسه. والدليل على أنه سبحانه وتعالى ليس صفة، هو استحالة أن تتصف الصفة بصفة وجودية. وكما سنرى لاحقا بإذن الله، فالله سبحانه وتعالى متصف بصفات وجودية مثل الحياة والعلم والقدرة والإرادة وغيرها. فالذي يتصف بصفات وجودية هو الذات، لأن الذات تقبل الاتصاف بالصفات. أما الصفة، فلا تصلح لأن تكون محلا للاتصاف بصفات وجودية. وسنفهم معنى الصفة الوجودية لاحقا بإذن الله. فمثلا، لا يصلح أن نقول علم له علم أو علم قادر أو إرادة لها علم، أي لا يصح أن نصف صفة وجودية بصفة وجودية مثلها أو غيرها أو ضدها. وأن نجعل أحدهما صفة والأخرى موصوف تحكم، ويلزم منه الترجيح بلا مرجح. وإنما يصح أن نصف الذات بالعلم والقدرة والإرادة وهكذا.

وأما سلب الافتقار للمخصص، فمعناه أن الله سبحانه وتعالى ليس أثرا لغيره، وليس فعلا لفاعل آخر، فلا يحتاج لغيره لكي يوجده، بل الله سبحانه وتعالى قائم بذاته ولا يحتاج لغيره في وجوده أبدا. فالمخصص هو الفاعل أو المؤثر أو المرجح. ولو احتاج لفاعل أو مُؤَثِّر أو مرجح لاحتاج هذا الآخر لثالث وهكذا فنقع في الدور أو التسلسل. فالله سبحانه وتعالى قائم بنفسه، ولا يفتقر لغيره أبدا سواء كان هذا الغير محلا أم مخصصا.

أما الحوادث، فهي التي تحتاج لمحل مثل الأعراض التي تحتاج لجوهر أو جسم لتقوم فيه، وتحتاج لمخصص مثل الجواهر والأعراض التي لا توجد بنفسها وإنما تحتاج وتفتقر لمرجح وموجد يخرجها من العدم إلى الوجود كما أثبتنا من قبل. فالله سبحانه وتعالى هو الغني الذي لا يفتقر لغيره وهو الصمد الذي لا

يحتاج لغيره وهو القيوم الذي يقوم بنفسه، وغيره محتاج ومفتقر إليه سبحانه وتعالى. "سبحانه وتعالى عما يصفون". وفيما يلي بإذن الله نتعرف على الصفة الرابعة من الصفات السلبية وهي مخالفة الغير.

مخالفة الحوادث

الصفة الرابعة من الصفات السلبية هي مخالفة الغير، أو مخالفة الحوادث وهي سلب المشابهة أو المماثلة للحوادث. فالله سبحانه وتعالى لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء، وهو ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ولا حال فيهما، ولا تحل فيه الحوادث فهو ليس محلا لها، وليس منها في جهة. فلا يقال عنه سبحانه وتعالى أنه داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا يمينه ولا شماله ولا أمامه ولا خلفه ولا في أي جهة منه. ولا يوصف بالحلول في الأمكنة، ولا بالاتحاد، ولا بالحركة ولا بالسكون، ولا بالكبر ولا بالصغر ولا بالاتصال ولا بالانفصال. ولا كيف له سبحانه وتعالى ولا أين، ولا يماس شيئا. فكل ما سبق وغيره من صفات الحوادث، فالله سبحانه وتعالى ليس مثلها في أي شيء كان، ولا يشبه الحوادث من أي وجه كان، ولا تشبهه الحوادث من أي وجه كان. لأنه لو أشبه الحوادث لصار حادثا مثلهم ولاحتاج لمن يحدثه ولوقعنا في الدور أو التسلسل كما شرحنا من قبل. فالله سبحانه وتعالى يقول: "ليس كمثله شيء". وكل ما خطر ببالك فهو سبحانه وتعالى بخلاف ذلك. وفيما يلي بإذن الله سنتعرف على الصفة الخامسة من الصفات السلبية وهي وحدانية الذات والصفات والأفعال.

وحدانية الذات والصفات والأفعال

والصفة الخامسة من الصفات السلبية هي الوحدانية، أي وحدانية الذات والصفات والأفعال، وهي سلب الكثرة بداية من الإثنينية عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله.

أما وحدانية الذات فهي سلب الكثرة عن ذات الله سبحانه وتعالى، ونفي الكم المتصل والكم المنفصل عن ذات الله سبحانه وتعالى. أما نفي الكم المتصل فمعناه أن الله سبحانه وتعالى واحد في ذاته، لا ينقسم ولا يتجزأ إلى أجزاء أو أبعاض. والدليل على أنه غير مركب من أجزاء أنه لو كان مركبا لاحتاج لمخصص يركب أجزاءه، فيصير حادثا، وهو محال لأنه يؤدي إلى الدور والتسلسل. وأما نفي الكم المنفصل فمعناه أنه لا توجد ذات أخرى تشبه ذاته سبحانه وتعالى.

وأما وحدانية الصفات فهي سلب الكثرة عن كل صفة من صفاته سبحانه وتعالى، ونفي الكم المتصل والكم المنفصل عن صفاته سبحانه وتعالى. فمثلا، الله سبحانه وتعالى له علم واحد وقدرة واحدة وإرادة واحدة، وهكذا. فله علم واحد يعلم به كافة المعلومات، وهكذا في كافة الصفات. كما لا يوجد علم آخر يشبه علم الله سبحانه وتعالى، وكذلك في كافة الصفات.

وأما وحدانية الأفعال، فمعناها أنه لا فاعل إلا الله سبحانه وتعالى، ولا مؤثِّر في أي شيء إلا الله سبحانه وتعالى، وكل ما سواه ليس له تأثير في شيء من الأشياء أبدا. ووحدانية الفعل هي أكثر المفاهيم أهمية في زماننا هذا لأنها غائبة تماما عن أذهان العوام وغيرهم ولا يعلمون عنها شيئا. وغياب مفهوم وحدانية الفعل هو السبب الرئيسي للتخبط الفكري والسلوكي الذي نعيشه حاليا، وسبب اضطراب كافة علوم الدين والدنيا في زماننا هذا. وقليل جدا من الناس في زماننا هذا من رأيته يفهم هذه المسألة حق الفهم، والأقل منهم من رأيته يقدرها حق قدرها ويطبقها حق تطبيقها. وينبني على فهم وحدانية الفعل معظم أبواب العقيدة، التي ينبني عليها الفقه والتصوف، وكل علوم الدنيا. وفهم تلك المسألة بالذات فهما صحيحا هو الطريق لتصحيح الفكر والسلوك، والقضاء على الكثير من العلوم الزائفة مثل التنمية البشرية واللايف كوتشنج. والجدير بالذكر أن وحدانية الفعل هي أهم ما يميز مذهب أهل السنة والجماعة عن غيره من المذاهب المنحرفة. ومن لا يفهم وحدانية الفعل فهما صحيحا فليس من أهل السنة والجماعة على الحقيقة، حتى وإن ظن نفسه كذلك، بل سيجد نفسه متبعا لفكر المعتزلة أو الفلاسفة أو الشيعة أو غيرهم وهو لا يشعر بذلك. ولذلك سنركز كثيرا على مفهوم وحدانية الفعل فيما يلي بإذن الله. وفيما يلي بإذن الله نذكر دليل الوحدانية أولا قبل شرح وحدانية الأفعال بالتفصيل.

دليل الوحدانية

أما دليل وحدانية الله سبحانه وتعالى فهو ما يسمى باسم برهان التمانُع. وبرهان التمانع أشار الله سبحانه وتعالى إليه في القرآن الكريم في قوله تعالى: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا". ولفهم برهان التمانع نقول إنه لو أمكن تعدد الآلهة، لانقلب المستحيل ممكنا كما في المثال التالي: بما أن كل إله من الآلهة المتعددة المزعومة متصف بكل صفات الكمال، لصارت حركة زيد أو سكونه ممكنة لكل منهم. فحركة زيد أو سكونه ممكنة للأول، وممكنة للثاني وهكذا. وبما أنها ممكنة لكل منهم، فأحد هذه الممكنات أن يريد الأول حركة زيد ويريد الثاني سكونه. وبما أن إرادة كل منهما نافذة، فيصير من الممكن أن تجتمع في زيد الحركة والسكون معا. كيف واجتماع الحركة والسكون مستحيل عقلا؟ فوجود الإلهين يقلب الحقائق ويجعل المستحيل ممكنا. وقلب الحقائق مستحيل عقلا وهو فساد المفاهيم وفساد كل شيء. ومجرد إمكان اجتماع الحركة والسكون مستحيل عقلا، وفيه رد على من يقول إن الإلهين سيتفقان دائما على حركة زيد أو سكونه بالفعل. والرد أن المشكلة ليست في الاتفاق أو الاختلاف بينهما من عدمه، وإنما المشكلة في مجرد إمكان اجتماع الضدين وإن لم يجتمعا بالفعل. لأن اجتماع الضدين مستحيل أصلا وليس ممكنا أبدا. ووجود إلهين يجعله من الممكنات، كيف وهو من المستحيلات؟ وفي حالة الاتفاق المزعوم فإنه يلزم إمكان تحصيل الحاصل وهو مستحيل عقلا. وتحصيل الحاصل أن يريد الثاني حركة زيد وهو متحرك بالفعل لأن الأول حركه. أو يريد سكونه وهو ساكن بالفعل لأن الأول سكنه. فعندها سيريد الثاني تحصيل ما هو حاصل بالفعل وهو مستحيل عقلا. أما في حالة اختلافهما في الإرادة، فسيلزم منه إمكان نفاذ إرادة أحدهما وعجز الآخر عن إنفاذ إرادته. وفي هذه الحالة فالعاجز ليس بإله.

فبرهان التمانع إذن، هو أنه لو أمكن تعدد الآلهة لأمكن التمانع بينهم وهو مستحيل عقلا، حتى وإن لم يقع التمانع بالفعل. فيمكن اجتماع النقيضين وهو مستحيل، ويمكن عجزهم جميعا أو عجز بعضهم، ويمكن تحصيل الحاصل وهو مستحيل. وفيما يلي بإذن الله نعود للكلام عن وحدانية الأفعال بالتفصيل.

التأثير هو الإيجاد من العدم

عرفنا سابقا أن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود. وعرفنا أنه سبحانه وتعالى قديم، باقٍ، قائم بنفسه، مخالف للحوادث، واحد في ذاته وصفاته وأفعاله. وكل ما سبق هي صفات سلبية واجبة لله سبحانه وتعالى، وهي تنفي عنه سبحانه وتعالى أي مشابهة للحوادث. وقلنا إنه لو شابه الحوادث لكان حادثا، والحادث لا يمكن أن يوجِد حادثا مثله، وإلا أفضى ذلك إلى الدور أو التسلسل المستحيلان عقلا. إذن، الحادث لا يمكن أبدا أن يُحدِث شيئا، أي لا يمكن أبدا أن يوجِد الأشياء من العدم. وإيجاد الأشياء من العدم هو الذي يسمى التأثير. فالتأثير هو إيجاد الأشياء من العدم. والأشياء التي توجد من العدم هي كافة الحوادث من جواهر وأجسام وأعراض. والذي يُوجِد الأشياء من العدم يسمى فاعلا. فالفاعل، هو المؤَثِّر، الذي يوجِد الأشياء من العدم. والحادث لا يصلح لكي يكون فاعلا ولا مؤثرا، بل الفاعل والمؤثر هو الله وحده لا شريك له لأنه لا يشبه الحوادث في شيء، وكل ما سواه حادث وليس فاعلا ولا مؤثرا. هذه ببساطة هي وحدانية الأفعال، أي لا فاعل ولا مؤثر في الأشياء إلا الله سبحانه وتعالى. فعلى سبيل المثال، عندما أركل الكرة بقدمي، فإن الكرة تذهب في الاتجاه الذي ركلتها إليه. والسؤال الآن، من الذي أوجد الحركة في الكرة وأحدث فيها ذهابا؟ هل أنا الذي أوجدت الحركة في الكرة؟ الحركة التي وجدت في الكرة لم تكن موجودة فيها، وإنما حدثت، أي وجدت من العدم. والإيجاد من العدم هو التأثير. وأنا حادث، وقد أثبتنا أنه يستحيل أن يؤثر الحادث في الحوادث، وإلا وقعنا في الدور أو التسلسل. إذن، من الذي أوجد الحركة في الكرة من العدم؟ الإجابة هي، أن الذي أوجدها هو واجب الوجود القديم الباقي القائم بنفسه المخالف للحوادث الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله. أي أن الذي أوجد تلك الحركة من العدم هو الله سبحانه وتعالى. أي أن الذي حرك الكرة هو الله سبحانه وتعالى. أي أن الذي أحدث أثرا في الكرة وجعلها تتحرك هو الله سبحانه وتعالى. أي أن الذي خلق الحركة في الكرة هو الله سبحانه وتعالى. أي أن الذي فعل الحركة في الكرة هو الله سبحانه وتعالى. أي أن فاعل الحركة في الكرة هو الله سبحانه وتعالى. أما أنا، فأنا حادث، ويستحيل أن أكون أنا الذي أحدثت حركة الكرة، ويستحيل أن تكون الكرة قد تحركت بغير محرك لها. وهكذا، قس على ذلك كافة الحوادث، فإن الذي يحدثها ويفعلها ويؤثر فيها ويوجدها من العدم هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، ولا تأثير لسواه في شيء من الأشياء البتة. وكما سنرى بعد ذلك بإذن الله، فلكي يصح الفعل من الله سبحانه وتعالى، فيجب له سبحانه وتعالى الاتصاف بصفات المعاني، كما سنعرف بالتفصيل لاحقا بإذن الله. فالفاعل لكي يكون فاعلا، فلابد أن يكون متصفا بصفات المعاني بالإضافة لكونه واجب الوجود ومتصفا بالصفات السلبية السابق ذكرها. ولذلك قلنا إن فهم وحدانية الفعل، تنبني عليها معظم أبواب العقيدة.

إذا فهمنا ما سبق، فما هي مذاهب الناس في التأثير، ما بين غير المسلمين والفرق المنحرفة؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

مذاهب الناس في التأثير

ما قلناه في المقالة السابقة عن التأثير هو ما ثبت بالدليل القاطع، وهو قول أهل السنة والجماعة المؤيد بالدليل القاطع. ومذاهب الناس في التأثير أربعة:

١- لا تأثير إلا لله سبحانه وتعالى.

٢- التأثير بالعلة.

٣- التأثير بالطبع.

٤- التأثير بالقوة المودعة.

أما المذهب الأول، فهو الحق، وهو مذهب أهل السنة والجماعة المؤيد بالأدلة والبراهين القطعية، العقلية والنقلية.

وأما التأثير بالعلة فهو مذهب الفلاسفة، وهو أن العلاقة بين العلة والمعلول علاقة تأثير وإيجاد من العدم. فالعلة توجد المعلول من العدم. ومثال العلة والمعلول، حركة الخاتم مع حركة الإصبع. فالإصبع عندما يتحرك، فإنه يحرك الخاتم معه. فقالوا إن حركة الإصبع علة حركة الخاتم، أي أن حركة الإصبع هي التي أوجدت حركة الخاتم من العدم.

وأما التأثير بالطبع، فهو قول الطبائعيين، وهو أن طبائع الأشياء هي التي توجد الأشياء من العدم، عند وجود الشروط وانتفاء الموانع. فمثلا، النار تحرق الخشب عند وجود شرط المماسة، وانتفاء مانع البلل مثلا. فطبيعة النار أنها تحرق الخشب عند وجود شرط المماسة وانتفاء مانع البلل. والقول بتأثير الطبع أو تأثير العلة، فيه إثبات لتأثير الحوادث في بعضها، وفيه نسبة الخلق للحوادث، أي أن الحوادث هي التي توجد الأشياء من العدم. وقد أثبتنا بطلان هذا الأمر.

ونلاحظ أن القول بتأثير الطبع والعلة، فيه إهمال للاحتياج لإله أصلا، فإذا كانت الحوادث هي التي تؤثر في بعضها، فما الحاجة إذن لوجود إله أصلا؟ ولذلك، فأصول القول بتأثير الطبع والعلة أصول إلحادية.

أما المذهب الأخير، فهو قول الفرق المنحرفة من المسلمين، وهم الذين يقولون إن الأشياء تؤثر في بعضها بقوة أودعها الله فيها. فمثلا، النار تحرق الأشياء بقوة أودعها الله فيها. وهذا القول، رغم أنه لا ينفى دور الإله، إلا أنه يقطع الطريق على إثبات واجب الوجود، لأنه في النهاية يثبت تأثير الحوادث في بعضها البعض. وقد أثبتنا أنه يستحيل عقلا أن تؤثر الحوادث في بعضها البعض وإلا وقعنا في الدور أو التسلسل. كما أن هذا القول يفتح الباب للترويج لفكرة موت الإله والعياذ بالله، أو فكرة عدم اعتناء الإله بمخلوقاته بعد أن خلقهم. فيظهر الاحتياج للإله في بداية الخلق فقط، أما بعد ذلك فلا حاجة لوجود الإله لأن الأشياء ستؤثر في بعضها بعد ذلك. أي أن الإله قد خلق العالم أولا، ثم تركه يسير بشكل تلقائي يؤثر بعضه في بعض دون تدخل منه.

وكل هذه الأقوال باطلة، وقد دل الدليل القطعي على خلافها. فالعالم يحتاج لوجود الإله في كل لحظة وآن، لأنه لا تأثير لشيء في شيء أصلا بالمرة، والتأثير لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له في كل لحظة وآن. ولو توقف الله سبحانه وتعالى عن الخلق لحظة واحدة، لأعدم العالم كله عن آخره في لحظة واحدة. فكل ما يحدث في هذا العالم من حركات وسكنات وآثار أيا كانت، فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحدثها وحده لا شريك له. ولا تأثير للعلة ولا للطبع ولا يوجد ما يسمى بالقوة المودعة.

ونلاحظ أن دراسة العلوم الدنيوية حاليا مثل الفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم، فإنها قائمة على القول بتأثير الطبع والعلة، والمسلمون يعطونها صبغة من القول بالتأثير بالقوة المودعة. فالدارس لكل هذه العلوم دون أن يدرس العقيدة، فسيتشبع بفكرة تأثير الحوادث في بعضها، وسيعتبرها أمرا مسلما به. وقديما، كان المسلمون يدرسون هذه العلوم بعد أن يتمكنوا من دراسة العقيدة أولا، فكانوا يدركون أن كل هذه التأثيرات إنما هي لله سبحانه وتعالى فقط لا غير. وأن حدوث الأحداث مقترنة ببعضها البعض ما هو إلا حكم العادة، وهو ما شرحناه من قبل وسنشرحه مرة أخرى بالتفصيل بعد أن فهمنا أنه لا تأثير إلا لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، ولا تأثير لسواه أبدا، لا بالطبع ولا بالعلة ولا بالقوة المودعة. وفيما يلي بإذن الله نعود لشرح حكم العادة بعد أن فهمنا ما سبق.

التأثير وحكم العادة

بعد أن عرفنا أن التأثير في الأشياء ليس إلا لله سبحانه وتعالى فقط لا غير، وأن كل ما سواه ليس له تأثير في شيء البتة، نعود مرة أخرى للكلام عن حكم العادة بشيء من التفصيل. قلنا سابقا إن حكمنا على الأشياء إذا كان مستفادا من التكرار على الحس فيسمى حكما عاديا، أو حكم العادة. والعادة هي التكرار على الحس. وحقيقة العادة أن الله سبحانه وتعالى قد عودنا على أنه يخلق بعض الأشياء مقترنة ببعض. فمثلا، لو عدنا إلى مثال ركل الكرة، نستطيع الآن أن نفهم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق ذهابا في الكرة عندما يقوم شخص ما بركلها. فالكرة لم تذهب بنفسها، وليس الركل هو الذي أحدث فيها ذهابا، وليس الشخص الذي قام بالركل هو الذي أحدث فيها ذهابا، وإنما خلق الله سبحانه وتعالى فيها ذهابا عند الركل، على سبيل العادة، أي أنه سبحانه وتعالى عودنا على ذلك. وكان من الممكن أن لا يخلق فيها ذهابا عند الركل، على خلاف العادة. وكان من الممكن أن يخلق فيها ذهابا دون ركل أصلا، على خلاف العادة. فذهاب الكرة عند الركل، يسمى أمرا عاديا. وذهابها بدون ركل، أو عدم ذهابها عند الركل، يسمى أمرا مخالفا للعادة، أو أمرا خارقا للعادة. ويسمى الركل في هذا المثال سببا عاديا. والسبب العادي لا يؤثر في الأشياء، وإنما يوجد مقترنا بأثر آخر لله سبحانه وتعالى. فوجود الركل هنا ليس له إلا الاقتران بعملية ذهاب الكرة التي يخلقها الله سبحانه وتعالى منفردا وبلا واسطة. وليس للركل أي تأثير البتة في ذهاب الكرة، لا من قريب ولا من بعيد.

ولنأخذ مثالا آخر لعادة أخرى، وهي الارتواء عند شرب الماء. فالذي يُحدِث الارتواء في الإنسان ليس هو الماء، وإنما يحدثه الله سبحانه وتعالى عند شرب الماء، على سبيل العادة. وكان من الممكن أن يُحدِث الله سبحانه وتعالى الارتواء بدون شرب الماء أصلا، على خلاف العادة. وكان من الممكن أن لا يحدث الارتواء عند شرب الماء، على خلاف العادة. فيسمى الارتواء عند شرب الماء، أمرا عاديا. ويسمى الارتواء بدون شرب الماء، أو عدم الارتواء عند شرب الماء، أمرا على خلاف العادة، أو أمرا خارقا للعادة. وبذلك يظهر لنا مفهوم خوارق العادات، وهو ما سنذكره لاحقا بإذن الله عند الكلام عن المعجزة، التي هي من خوارق العادات. وسنتكلم أيضا بمزيد من التفصيل عن أفعال الله سبحانه وتعالى فيما يلي.

والسؤال الآن، هل اتصاف الله سبحانه وتعالى بالصفات السلبية كاف ليصح منه الفعل، أم يجب له سبحانه وتعالى الاتصاف بصفات أخرى؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله، وسنتعرف على ما يسمى باسم صفات المعاني، أو الصفات الوجودية.

صفات المعاني

الصفات السلبية التي تكلمنا عنها سابقا هي عبارة عن تنزيه الله سبحانه وتعالى عن النقائص، أي تنزيهه سبحانه وتعالى عن مشابهة الحوادث. ونحتاج الآن للتعرف على كمالات الله سبحانه وتعالى. فالله سبحانه وتعالى منزه عن النقائص، فيجب له الاتصاف بالصفات السلبية. والله سبحانه وتعالى أيضا متصف بالكمالات فيجب له الاتصاف بصفات المعاني. وقلنا سابقا إن الصفات السلبية معناها سلب النقائص، أي أن مدلولها عدم أمر لا يليق بالله سبحانه وتعالى. أما صفات المعاني، فتسمى أيضا صفات وجودية. أي أنها صفات موجودة. وصفات المعاني بصفة عامة، قد تكون قديمة وهي صفات الله سبحانه وتعالى، وقد تكون حادثة وهي صفات المخلوقات. فالصفة إذا كانت موجودة، سميت صفة معنى. وأمثلة الصفات الوجودية للمخلوقات مثل الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والكيفيات والألوان والروائح وما إلى ذلك من الأعراض التي ذكرناها من قبل. وكل صفات المخلوقات الوجودية حادثة، يخلقها الله سبحانه وتعالى فيهم. أما صفات المعاني لله سبحانه وتعالى فكلها قديمة، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى ليس محلا للحوادث كما قلنا من قبل.

وصفات المعاني لله سبحانه وتعالى سبعة، وهي: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر.

وجدير بالذكر أن كمالات الله سبحانه وتعالى لا تتناهى، فهي ليست محصورة في تلك المعاني السبعة، ولكننا لا نذكر إلا الصفات التي دل عليها الدليل العقلي أو النقلي. وفيما يلي بإذن الله نتكلم عن صفات المعاني بالتفصيل.

القدرة

من كمالات الله سبحانه وتعالى صفة القدرة، وهي معنى موجود قائم بذات الله سبحانه وتعالى. وصفة القدرة هي صفة أزلية قائمة بذات الله سبحانه وتعالى وهي التي يتأتى بها إيجاد الممكنات من العدم. فالفاعل، لكي يكون فاعلا، فيجب له أن يكون قادرا على الفعل. لأنه لو لم يكن قادرا لكان عاجزا، والعاجز لا يتأتى منه الفعل. إذن صفة القدرة لله عز وجل هي الصفة التي يتأتى بها إيجاد الممكنات من العدم. ولكن الممكنات مختلفة عن بعضها البعض من حيث المكان والزمان والمقدار والصفات والجهات، كما أنها قد توجد وقد لا توجد أصلا. فما الذي سيخصص تلك الممكنات حتى توجدها قدرة الله سبحانه وتعالى على ما هي عليه؟ لابد إذن من وجود صفة أخرى لله سبحانه وتعالى تخصص تلك الممكنات كل بخصائصه المختلفة. وتلك الصفة الأخرى هي صفة الإرادة، وسنتعرف عليها فيما يلي بإذن الله.

الإرادة

الله سبحانه وتعالى يوجِد الممكنات من العدم بقدرته سبحانه وتعالى. وبما أن الممكنات قد توجد أو لا توجد، وقد توجد على صفات مختلفة وفي أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة ومقادير مختلفة وجهات مختلفة، فلابد من وجود صفة أخرى لله سبحانه وتعالى تخصص الممكنات ببعض ما يجوز عليها. وهذه الصفة هي صفة الإرادة. وإرادة الله سبحانه وتعالى هي صفة معنى موجودة وقائمة بذات الله سبحانه وتعالى، وهي صفة أزلية تُخَصِّص الممكنات ببعض ما يجوز عليها من الوجود أو العدم والمقدار والزمان والمكان والصفة والجهة. فعلى سبيل المثال، الله سبحانه وتعالى بإرادته القديمة يخصص ممكنا بالوجود بدلا من العدم، ويخصصه بالطول بدلا من القصر، وبأن يكون في مصر، وفي سنة ٢٠١٩ وبأن يكون أسمر اللون وما إلى ذلك من هذه التخصيصات للممكنات المختلفة، ويوجده سبحانه وتعالى وفقا لهذا التخصيص بقدرته سبحانه وتعالى. فالله سبحانه وتعالى يخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه بإرادته، ويوجده بقدرته على طبق إرادته سبحانه وتعالى. ولو لم يكن الله مريدا لما يوجده من العدم لكان مكرها مجبورا على أن يوجِد شيئا لا يريد وجوده، ولا شك أن هذا الإجبار وهذه الكراهة من النقائص التي تتنافى مع كمال الله سبحانه وتعالى. وبثبوت صفة الإرادة لله سبحانه وتعالى، فيقال عن الله سبحانه وتعالى أنه الفاعل المختار. أي أن أفعاله سبحانه وتعالى تقع على وفق إرادته سبحانه وتعالى. وإرادة الله سبحانه وتعالى هي مشيئته واختياره سبحانه وتعالى.

والفاعل بحسب الفرض والتقدير، إما أن يكون فاعلا بالاضطرار، وإما أن يكون فاعلا بالاختيار. والفلاسفة، قالوا إن الله سبحانه وتعالى فاعل بالاضطرار، أي أن العالَم قد صدر عنه سبحانه وتعالى صدور المعلول عن العلة، وهذا الصدور ليس فيه اختيار. وهو باطل كما قلنا من قبل. والحق أن الله سبحانه وتعالى هو الفاعل الوحيد لكل شيء، وهو فاعل بالاختيار، لا بالاضطرار كما قالت الفلاسفة، أي أن أفعاله سبحانه وتعالى تقع على وفق إرادته سبحانه وتعالى، فهو سبحانه وتعالى مريد لها غير مكره ولا مجبور عليها ولا مضطر لها. والفاعل بالاختيار معناه أنه سبحانه وتعالى إذا شاء فعل، وإذا شاء ترك الفعل، وهو ما سنتكلم عنه بالتفصيل لاحقا بإذن الله.

وبما أن العالَم صنعة متقنة مليئة بالتفاصيل الدقيقة، فهل يصح أن توجد هذه الصنعة المتقنة بتفاصيلها من فاعل غير عالم بتفاصيلها؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

العلم

لأن العالَم صنعة متقنة تفاصيلها دقيقة، فلا يمكن أن توجد هذه الصنعة عن غير عالم بتفاصيلها ودقائقها. فيجب لفاعل هذا العالَم المتقن المحكم أن يتصف بالعلم. وعلم الله سبحانه وتعالى صفة معنى، وهي صفة أزلية موجودة قائمة بذاته سبحانه وتعالى تنكشف بها كافة المعلومات على ما هي عليه انكشافا لا يحتمل النقيض بوجه. والمعلومات هي كافة الواجبات والمستحيلات والممكنات، الموجود منها والمعدوم. فالله سبحانه وتعالى يعلم ما هو موجود وما هو معدوم من المعلومات، ويعلم ما هو واجب الوجود وما هو مستحيل الوجود وما هو ممكن الوجود، ويعلم كل ذلك على ما هو عليه، ويعلمه بما لا يحتمل النقيض بوجه. وكل ما يوجده الله سبحانه وتعالى من العدم، فإنه يوجده بقدرته، على طبق إرادته، على طبق علمه سبحانه وتعالى. والفاعل لابد أن يكون عالما بتفاصيل ودقائق ما يفعله، لأنه لو لم يكن عالما بها لجاز أن توجد صنعة متقنة من غير عالم بتفاصيلها ودقائقها. نلاحظ مما سبق أن الصفات المتعلقة بالإيجاد هما صفتان: القدرة والإرادة، وهما صفتا تأثير. فالله سبحانه وتعالى يخصص الممكن بإرادته، ويوجده بقدرته سبحانه وتعالى. ولا توجد صفات تأثير

أخرى. أما صفة العلم، فهي صفة انكشاف وليست صفة تأثير. وهذه الملاحظة في غاية الأهمية لأنها تصحح أحد المفاهيم المغلوطة المنتشرة حول الصفة التالية وهي صفة الكلام. والمعلومة المغلوطة هي أن الله سبحانه وتعالى يوجد الأشياء بكلامه سبحانه وتعالى، أخذا بظواهر بعض الآيات مثل الآية الكريمة: "إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون".

فما هي صفة الكلام، وهل هي صفة تأثير؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

الكلام

كلام الله سبحانه وتعالى صفة معنى، وهي صفة أزلية موجودة قائمة بذاته سبحانه وتعالى تدل على جميع المعلومات، وهي ليست بصوت ولا بحرف. فكلام الله سبحانه وتعالى يدل على كافة المعلومات، الموجود منها والمعدوم، الواجب الوجود منها والمستحيل الوجود والممكن الوجود، دلالة مستمرة أزلا وأبدا. وهو سبحانه وتعالى بكلامه آمر ناهٍ مخبر. فأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه راجعة إلى صفة الكلام. وكذلك ما أخبرنا الله سبحانه وتعالى به من أخبار، فكل ذلك راجع إلى صفة الكلام. وكلامه سبحانه وتعالى ليس بحرف ولا صوت، لأن الحروف والأصوات مخلوقة، والله سبحانه وتعالى لا تحل به الحوادث. وكلام الله سبحانه وتعالى صفة دلالة كما هو واضح عاليه، فليس لكلامه سبحانه وتعالى علاقة بإيجاد الأشياء، فهو ليس صفة تأثير. وهذه النقطة لها أهمية كبيرة، وذلك لأن الفرق المنحرفة قد خلطت بين كلام الله سبحانه وتعالى وبين إرادته تارة، وخلطوا بين كلامه وأفعاله سبحانه وتعالى تارة أخرى. ولا ينبغي الخلط أبدا بين كلام الله سبحانه وتعالى، وبين إرادته أو أفعاله. وجدير بالذكر أن من أسباب الاضطراب الفكري والسلوكي الذي نعيشه حاليا، عدم إدراك الفرق بين إرادة الله سبحانه وتعالى وبين أوامره سبحانه وتعالى، والظن بأنهما شيء واحد. وفيما يلي بإذن الله نوضح أن إرادة الله سبحانه وتعالى شيء، وأوامره شيء آخر.

إرادة الله شيء وأوامره شيء آخر

كما عرفنا سابقا، فإرادة الله سبحانه وتعالى صفة تخصيص للممكنات ببعض ما يجوز عليها، وعرفنا أن أوامر الله سبحانه تعالى راجعة لصفة الكلام. فإرادة الله شيء، وأوامره شيء آخر، وقد يتفقان وقد يختلفان، على أربعة احتمالات كما يلي:

١- شيء أراده الله وأمر به.

٢- شيء أراده الله وأمر بضده.

٣- شيء لم يرده الله وأمر به.

٤- شيء لم يرده الله وأمر بضده.

وسنضرب مثالا واضحا لبيان الاحتمالات الأربعة، وهو نسبة الإيمان والكفر لكل من سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأبي لهب.

١- أما الشيء الذي أراده الله وأمر به، فهو إيمان سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه. فقد أراد الله أن يؤمن سيدنا أبو بكر، وفي نفس الوقت أمر سيدنا أبا بكر بالإيمان.

٢- وأما الشيء الذي أراده الله وأمر بضده، فهو كفر أبي لهب. فقد أراد الله أن يكفر أبو لهب، وفي نفس الوقت أمر أبا لهب بالإيمان الذي هو ضد الكفر.

٣- وأما الشيء الذي لم يرده الله وأمر به، فهو إيمان أبي لهب. فلم يرد الله أن يؤمن أبو لهب، وفي نفس الوقت أمره بالإيمان.

٤- وأما الشيء الذي لم يرده الله وأمر بضده، فهو وقوع الكفر من سيدنا أبي بكر. فلم يرد الله أن يكفر سيدنا أبو بكر، وفي نفس الوقت أمره بالإيمان الذي هو ضد الكفر.

فإرادة الله شيء وأوامره شيء آخر، وقد يتفقان وقد يختلفان. أما من التبس عليه الأمر فظن أن إرادة الله سبحانه وتعالى هي نفسها أوامره، فسيقع في المشكلة التالية: سيظن أن الله لم يرد الكفر لأبي لهب لأنه أمره بالإيمان. ووفق هذا الظن الخاطئ، سيعتبر أن أبا لهب قد كفر على عكس إرادة الله سبحانه وتعالى، وبذلك يكون قد زعم أنه قد وقع في ملك الله سبحانه وتعالى شيء لا يريده، فينسب الكراهة والاضطرار لله سبحانه وتعالى بأن يقع في ملكه ما لا يريد، ولا شك أن الكراهة والاضطرار لا تليق بالله سبحانه وتعالى كما ذكرنا من قبل. هذا بالإضافة للكثير والكثير من المشاكل الاعتقادية والنفسية والسلوكية للخلط بين أوامر الله وإرادته سبحانه وتعالى، كما سيتضح لاحقا بإذن الله. وهذا الخلط قد وقعت فيه الفرق المنحرفة قديما، حتى رد عليهم أهل السنة بداية من سيدنا الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، حتى تم ضبط الفكر على السنة. ونحن نحتاج هذه الأيام لضبط الفكر مرة أخرى على السنة. وجدير بالذكر، أن معظم ما ذكرته سابقا عن الفرق المنحرفة، وما سأذكره لاحقا، فالمقصود بهم فرقة المُعْتَزِلَة تحديدا. وجدير بالذكر أيضا أنه وللأسف الشديد، نحن نتنفس حاليا فكر تلك الفرقة القديمة، التي تجددت تلبيساتها هذه الأيام. ومعظم ردود أهل السنة على الفرق المنحرفة وضبطهم للفكر على وفق السنة، كانت ردودا على تلك الفرقة بالذات. وذلك لأن كلام تلك الفرقة أقرب لفهم العوام، لأنه كلام ملتبس يثير الشبهات عند غير المحققين ولا الدارسين. ولأن العوام كذلك، فقبولهم لشبهات المعتزلة سهل جدا. وفيما يلي بإذن الله نتكلم عن صفتي السمع والبصر.

السمع والبصر والحياة

أما السمع والبصر فهما صفتا معنى، أي صفتان موجودتان أزليتان قائمتان بذات الله سبحانه وتعالى تنكشف بهما الموجودات انكشافا مغايرا لانكشافها بالعلم، والانكشاف بأحدهما مغاير للانكشاف بالأخرى. ولكي يصح الاتصاف بصفات المعاني السابقة من علم وإرادة وقدرة وكلام وسمع وبصر، فإنه يجب لله سبحانه وتعالى الاتصاف بصفة الحياة. وصفة الحياة هي صفة معنى، وهي صفة موجودة أزلية قائمة بذات الله سبحانه وتعالى توجب صحة الاتصاف بصفات المعاني الأخرى. وذلك لأنه لا يتصور وجود صفات المعاني في غير الحي.

إذن، تلخيصا لما سبق، فصفات المعاني هي:

١- الحياة، وهي توجب صحة الاتصاف بصفات المعاني الأخرى.

٢- العلم، وهي صفة تنكشف بها كافة المعلومات.

٣- الإرادة، وهي صفة تخصيص للممكنات ببعض ما يجوز عليها.

٤- القدرة، وهي صفة يتأتى بها إيجاد الممكنات من العدم.

٥- الكلام، وهي صفة تدل على كافة المعلومات.

٦ و٧- السمع والبصر، وهما صفتان تنكشف بهما الموجودات انكشافا مغايرا لانكشافها بالعلم، والانكشاف بإحداهما مغير للانكشاف بالأخرى.

فالله سبحانه وتعالى حي بحياة، عالم بعلم، مريد بإرادة، قادر بقدرة، متكلم بكلام، سميع بصير بسمع وبصر. وكما نلاحظ، فإن صفات المعاني تتعلق بالمعلومات تعلقات مختلفة. وهذا ما سنشرحه فيما يلي بإذن الله.

تعلق صفات المعاني

التعلق هو اقتضاء الصفة أمرا زائدا على قيامها بالذات. أي أن الصفة تقتضي أمرا زائدا على وجودها في ذات الله سبحانه وتعالى. فمثلا، العلم يقتضي معلوما ينكشف به، والإرادة تقتضي مرادا يتخصص بها، وهكذا. وتعلق الصفات كالتالي:

١- الحياة، لا تتعلق بشيء.

٢- العلم والكلام، تتعلقان بسائر المعلومات، الموجود منها والمعدوم، وواجب الوجود منها ومستحيل الوجود وممكن الوجود. وتعلق العلم تعلق انكشاف. وتعلق الكلام تعلق دلالة.

٣- القدرة والإرادة، تتعلقان بالممكنات فقط. وتعلق القدرة تعلق إيجاد من العدم. وتعلق الإرادة تعلق تخصيص.

٤- السمع والبصر، تتعلقان بالموجودات فقط. وتعلقهما تعلق انكشاف مغاير للانكشاف بالعلم، والانكشاف بإحداهما مغاير للانكشاف بالأخرى.

وبقي أن نقول إن صفات المعاني لا يقال عنها إنها هي الله ولا هي غير الله سبحانه وتعالى، بل هي صفات أزلية قائمة بذات الله سبحانه وتعالى. وبذلك نكون قد انتهينا من معرفة ما يجب في حق الله سبحانه وتعالى. فيجب في حقه الوجود، وهو ذات الموجود سبحانه وتعالى، ويجب له الاتصاف بخمس صفات سلبية هي القِدَم والبقاء والقيام بالنفس ومخالفة الحوادث ووحدانية الذات والصفات والأفعال، وهي صفات تنزيه لله سبحانه وتعالى عن كل نقص، أي تنزيهه سبحانه وتعالى عن لوازم الحدوث، ويجب له الاتصاف بصفات المعاني وعددها سبعة، وهي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والكلام والسمع والبصر، وهي صفات أزلية موجودة قائمة بذات الله سبحانه وتعالى، ولا يقال هي هو ولا هي غيره، وهي صفات كمال، وكمالات الله سبحانه وتعالى لا تتناهى. وفيما يلي بإذن الله نتعرف على ما يستحيل في حق الله سبحانه وتعالى.

معرفة ما يستحيل في حقه سبحانه وتعالى

بعد أن عرفنا ما يجب في حقه سبحانه وتعالى، نتعرف الآن على ما يستحيل في حقه سبحانه وتعالى، وهي أضداد الصفات الواجبة في حقه سبحانه وتعالى. فيستحيل في حقه سبحانه وتعالى ما يلي: العدم، والحدوث، وهو أسبقية العدم، والفناء، وهو طروء العدم، وعدم القيام بالنفس، وهو الاحتياج للمَحَلّ أو المُخَصِّص، ومشابهة الحوادث، والتعدد أو الكثرة أو الشريك في الذات أو الصفات أو الأفعال، والموت، والجهل، سواء البسيط أو المركب، أو ما في معناه من الغفلة أو النسيان أو النوم أو الظن أو غير ذلك، والكراهية أو الاضطرار، بأن يقع في ملكه ما لا يريده، والعجز، والبكم أو السكوت، والصمم، والعمى. ويستحيل في حقه سبحانه وتعالى كل ما في معنى ما سبق من النقائص. تعالى الله سبحانه عن كل ذلك علوا كبيرا، وتعالى الله سبحانه وتعالى عن الاتصاف بأي نقص، فكل ذلك مستحيل في حقه سبحانه وتعالى. وفيما يلي بإذن الله نتعرف على ما يجوز في حقه سبحانه وتعالى.

ومعرفة ما يجوز في حقه سبحانه وتعالى هو أصل التسليم لله سبحانه وتعالى، وهو ثمرة تعلم العقيدة كلها، وعليها ينبني علم الفقه والتصوف وعلوم الدنيا كلها، وهو كنز علوم أهل السنة والجماعة وميزتها الكبرى، ولم تظفر به الفرق المنحرفة، وهو العاصم عن كل انحراف فكري أو سلوكي بإذن الله سبحانه وتعالى، وهو باب فريد من أبواب العلم، من عض عليه بالنواجذ فقد فاز فوزا عظيما، ببركة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. "وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله".

معرفة ما يجوز في حقه سبحانه وتعالى

بعد أن تعرفنا على ما يجب وما يستحيل في حقه سبحانه وتعالى، نتعرف الآن على ما يجوز في حقه سبحانه وتعالى، وهي أفعاله سبحانه وتعالى. وكل أفعال الله سبحانه وتعالى جائزة في حقه سبحانه وتعالى، فلا يجب على الله فعل شيء أبدا، ولا يستحيل على الله فعل شيء أبدا. ومعنى كونها جائزة، أنه جائز في حقه سبحانه وتعالى أن يفعلها وجائز في حقه سبحانه وتعالى أن يترك فعلها. فجائز في حقه سبحانه وتعالى إيجاد الممكنات، ما وجد منها وما لم يوجد، وجائز في حقه سبحانه وتعالى ترك إيجاد الممكنات، ما وجد منها وما لم يوجد. فإذا شاء فعل، وإذا شاء ترك الفعل. فالله سبحانه وتعالى: "فعال لما يريد"، كما جاء في القرآن الكريم. و"ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن"، كما جاء في الحديث الشريف. وكل ما وجد بالفعل من الممكنات، إنما وجد لأن الله سبحانه وتعالى أراده أن يوجد، وكان من الممكن ألا يوجده الله سبحانه وتعالى. وكل ما لم يوجد من الممكنات، إنما لم يوجد لأن الله سبحانه وتعالى لم يرد له أن يوجد، وكان من الممكن أن يوجده الله سبحانه وتعالى، وإذا أراد أن يوجده في المستقبل فسيوجده. فإيجاد أي من الممكنات أو ترك إيجاده جائز في حقه سبحانه وتعالى، إذا شاء فعل، وإذا شاء ترك الفعل.

والسؤال الآن، ما هي أفعال الله سبحانه وتعالى؟ هذا ما سنتعرف عليه بمزيد من الإيضاح فيما يلي بإذن الله.

أفعال الله سبحانه وتعالى

أفعال الله سبحانه وتعالى هي التعلق التنجيزي الحادث لقدرة الله سبحانه وتعالى الأزلية بإيجاد الممكنات من العدم. ولفهم تعريف أفعال الله سبحانه وتعالى، نقول: قلنا سابقا إن قدرة الله سبحانه وتعالى هي صفة من صفات المعاني، وهي صفة أزلية موجودة قائمة بذاته سبحانه وتعالى. وقلنا إن صفة القدرة تتعلق بالممكنات تعلق إيجاد من العدم. أي أن الله سبحانه وتعالى يوجد الممكنات من العدم بقدرته الأزلية. والقدرة لها نوعان من التعلق بإيجاد الممكنات من العدم: تعلق صلوحي قديم، وتعلق تنجيزي حادث.

أما التعلق الصلوحي القديم، فمعناه أن قدرة الله سبحانه وتعالى في الأزل صالحة لإيجاد الممكنات التي لم يأت وقت إيجادها بعد.

وأما التعلق التنجيزي الحادث، فمعناه أن القدرة قد أنجزت إيجاد الممكن في وقت وجوده بالفعل. وهذا التعلق التنجيزي الحادث للقدرة بإيجاد الممكن هو فعل الله سبحانه وتعالى. وفعل الله سبحانه وتعالى هو نفسه الشيء الذي وجد من العدم. فمثلا، فإننا نقول إن حركة الكرة فعل من أفعال الله سبحانه وتعالى. ونقول إن الكرة نفسها فعل من أفعال الله سبحانه وتعالى. وهكذا. فأفعال الله سبحانه وتعالى هي مخلوقاته سبحانه وتعالى. إذن، اختصارا لكل ما سبق، فلنتذكر دائما ببساطة أن أفعال الله سبحانه وتعالى هي مخلوقاته سبحانه وتعالى. فعندما نتكلم عن أفعال الله سبحانه وتعالى، فنحن في الحقيقة نتكلم عن مخلوقات الله سبحانه وتعالى، التي هي كافة الحوادث، أي كل ما سوى الله سبحانه وتعالى. وكل مخلوقات الله سبحانه وتعالى إنما توجد فقط إذا أراد الله إيجادها، وكان من الممكن ألا يوجدها، فإيجادها ليس واجبا عليه سبحانه وتعالى، ولا هو مستحيل، بل هو جائز في حقه سبحانه وتعالى.

وإذا ما قسمنا أفعال الله سبحانه وتعالى، سنجد أنها لا تخرج عما يلي: ذوات المخلوقات، وصفات المخلوقات.

وصفات المخلوقات لا تخرج عما يلي:

١- صفات لا علاقة لها بالتكليف. وهي صفات غير المكلفين، وأفعال المكلفين الاضطرارية.

٢- صفات لها علاقة بالتكليف. وهي أفعال المكلفين الاختيارية.

إذن، خلاصة ما سبق، أن أفعال الله سبحانه وتعالى لا تخرج عن ثلاثة أنواع رئيسية:

١- ذوات المخلوقات، التي هي الجواهر والأجسام.

٢- صفات المخلوقات التي لا علاقة لها بالتكليف، التي هي بعض الأعراض.

٣- أفعال المكلفين، التي هي بعض الأعراض.

وهي ما سنتعرف عليه بالتفصيل فيما يلي بإذن الله.

مثال لأفعال الله سبحانه وتعالى

إذا أردنا أن نفهم الأنواع المختلفة لأفعال الله سبحانه وتعالى، والتي ذكرناها سابقا، سنضرب مثالا واحدا، ومنه سنفهم كلا منها بإذن الله. والمثال الذي نذكره دائما هو ركل زيد للكرة. فزيد معه كرة يلعب بها ويركلها بقدمه.

١- زيد والكرة ذوات مخلوقة، وهما جسمان مؤلفان من جواهر، وكل من زيد والكرة وجواهرهما أفعال من أفعال الله سبحانه وتعالى.

٢- زيد متصف بصفات وهي أنه متحرك، ولونه أسمر، وخفيف الوزن، وهكذا من الصفات التي خلقها الله سبحانه وتعالى فيه. وكذلك الكرة، فهي كرة بيضاء، وتتحرك مع زيد، وهكذا من الصفات التي خلقها الله سبحانه وتعالى في الكرة. فصفات زيد وصفات الكرة هي أفعال من أفعال الله سبحانه وتعالى.

٣- أثناء لعب زيد بالكرة في الجو البارد، ارتعش جسم زيد لثوان. وحركة الارتعاش تلك هي فعل من أفعال الله سبحانه وتعالى، خلقها الله في زيد.

٤- ثم ركل زيد الكرة فذهبت بعيدا. فالركل، وذهاب الكرة بعد الركل، كل منهما فعل من أفعال الله سبحانه وتعالى. أما الركل فقد خلقه الله في زيد، وأما ذهاب الكرة فقد خلقه الله في الكرة.

والسؤال الآن، أي من أفعال الله السابقة يمكن أن ننسبها لزيد، بحيث يقال إنها "فعل زيد"؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

الكسب وأفعال العباد

في المثال السابق، لاحظنا نوعين من الحركة حدثت في زيد، وهي الارتعاش والركل. وزيد علم من نفسه علما ضروريا أنه يوجد فرق بين حركة الارتعاش وبين حركة الركل. والفرق لوجود أمور أخرى اقترنت مع حركة الركل، ولم تكن موجودة مع الارتعاش وهي ما يلي:

١- خلق الله سبحانه وتعالى في زيد ميلا وقصدا وتوجها واختيارا وإرادة نحو الركل، وكلها أفعال الله سبحانه وتعالى أوجدها الله في زيد.

٢- ثم خلق الله سبحانه وتعالى في زيد قدرة مقترنة بالركل. وتلك القدرة المخلوقة هي أيضا فعل من أفعال الله سبحانه وتعالى.

وكل ما سبق، لم يخلقه الله سبحانه وتعالى في حالة حركة الارتعاش. ولنراجع مرة أخرى ما سبق: الميل والقصد والنية والتوجه والاختيار والإرادة، كلها صفات وجودية يخلقها الله سبحانه وتعالى في نفس الإنسان. فالإنسان ليس هو الذي يوجِد هذه الأمور في نفسه. كما أن هذه الأمور، ليست أمورا عدمية لا وجود لها، وذلك لأنه يقع في نفوسنا علم ضروري بوجود تلك الأمور عندما تكون موجودة، وندرك الفرق عندما لا تكون موجودة. والقدرة التي يخلقها الله في الإنسان، إنما يخلقها مقترنة بالفعل الذي وجد في الإنسان، لا قبله ولا بعده. فالارتعاش الذي حدث في زيد، لم يخلق الله عنده أيا مما سبق، ويسمى هذا الفعل وقتها فعلا اضطراريا. والركل الذي حدث في زيد، خلق الله عنده قدرة مقترنة بالركل، وخلق قبله ميلا وقصدا وتوجها ونية وعزما وهمة وما إلى ذلك، ويسمى الركل عندها فعلا اختياريا. وذلك الفعل الاختياري يسمى كسبا واكتسابا. والفعل الاختياري ينسب للعبد لا لأنه أوجده، وإنما لأنه اكتسبه.

والكسب هو تعلق القدرة الحادثة في محلها تعلق اقتران بوجود الفعل، لا تعلق إيجاد وتأثير. فالفعل لا يوجد إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى القديمة فقط لا غير. ويستحيل عقلا أن تؤثر قدرتين في مقدور واحد، وإلا لزم تحصيل الحاصل، وهو مستحيل عقلا. أما التعبير بقولنا: "وقوع مقدور بين قدرتين"، فمعناه أن المقدور يقع بتأثير قدرة واحدة فقط هي قدرة الله الأزلية، ويقع مقترنا بقدرة العبد المخلوقة الغير مؤثرة، فقد وقع "بين" قدرتين، وليس "ب" قدرتين. وهذا التعبير يختلف عن قولنا: "وقوع مقدور بقدرتين"، فهو تعبير خاطئ، لأن المقدور لا يقع إلا بقدرة واحدة فقط هي قدرة الله الأزلية. فتعلق قدرة الله الأزلية بالمقدور تعلق إيجاد وتأثير، وتعلق قدرة الإنسان المخلوقة بالمقدور تعلق اقتران بغير تأثير. فلا دخل للإنسان إطلاقا، لا من قريب ولا من بعيد في إيجاد أفعاله الاختيارية.

فإذا كان الأمر كذلك، فما علاقة التكليف بكل من الأفعال الاضطرارية والأفعال الاختيارية التي هي الكسب؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

الكسب والتكليف

كان من الممكن أن يكلفنا الله سبحانه وتعالى في كل من حالتي الأفعال الاضطرارية والأفعال الاختيارية، فكلاهما فعل الله سبحانه وتعالى يخلقه الله في الإنسان. ولكن من رحمة الله سبحانه وتعالى بنا، فإنه كلفنا فقط في حالة الأفعال الاختيارية. فهو لم يكلفنا في حالة الأفعال الاختيارية لأننا نحن من أوجدها، أو أنها وجدت بإرادتنا وميلنا وقصدنا وتوجهنا نحوها، بل كل ذلك من خلق الله سبحانه وتعالى فينا. وأفعالنا الاختيارية يخلقها الله سبحانه وتعالى فينا بقدرته وحده لا شريك له، وعلى طبق إرادته وحده لا شريك له. وتكليفنا عندها تخفيف وتفضل ورحمة، فقد كان من الممكن أن يكلفنا في حالة الأفعال الاضطرارية أيضا، فله سبحانه وتعالى ذلك. بل إنه سبحانه وتعالى له أن يكلفنا بالمستحيل العقلي، ولكنه لم يكلفنا به رحمة وتفضلا. فلا علاقة للتكليف بإيجاد الأفعال، فكلها بإيجاد الله سبحانه وتعالى. ثم إن الثواب والعقاب محض فضل أو عدل، وليس مترتبا على أفعالنا.

فهل له سبحانه وتعالى أن يعاقب الطائع ويثيب العاصي؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

لا يجب على الله سبحانه وتعالى فعل شيء أبدا

الثواب والعقاب من أفعال الله سبحانه وتعالى. فالله سبحانه وتعالى قد يخلق في الإنسان ثوابا، وقد يخلق في الإنسان عقابا. وبما أنهما من أفعال الله سبحانه وتعالى، فجائز في حقه سبحانه وتعالى إثابة من يشاء وعقاب من يشاء. فيجوز في حقه إثابة العاصي، وعقاب الطائع. فترتب الثواب والعقاب على أفعال العباد ليس ترتبا حتميا ضروريا واجبا على الله سبحانه وتعالى. وإنما أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأنه سيثيب الطائع، وهذا تفضل منه ورحمة، فليس الطائع مستحقا للثواب بأفعاله، وإنما بفضل الله ورحمته. وأخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه قد يعذب العاصي، وإذا عذبه فهو محض عدل منه سبحانه وتعالى. وأخبرنا سبحانه وتعالى أنه قد يعفو عن العاصي إذا كان مسلما، وهذا محض تفضل منه سبحانه وتعالى. فالثواب والعقاب ليس مترتبا على الأفعال، بل الثواب محض فضل من الله ورحمة والعقاب محض عدل منه سبحانه وتعالى. ولكن، هل إثابة العاصي وتعذيب الطائع، لو وقع بالفعل، ألا يكون ظلما لا يليق به سبحانه وتعالى؟ الإجابة هي لا، لا يكون ذلك ظلما لو فرضنا أنه وقع بالفعل.

وذلك لأن الظلم عبارة عن أحد أمرين: إما مجاوزة الحد، وإما التصرف في ملك الغير. أما مجاوزة الحد، فالله سبحانه وتعالى ليس فوقه أحد ليضع له حدودا فيخبره ما الذي ينبغي أن يفعله وما الذي لا ينبغي أن يفعله. وأما التصرف في ملك الغير، فكل شيء ملكه سبحانه وتعالى، ومن تصرف في ملكه كما يشاء فلا يعد ظالما. فالظلم غير متصور في حقه سبحانه وتعالى أصلا.

أما المعتزلة، فقد أوجبوا على الله سبحانه وتعالى فعل بعض الأمور بحيث لو فعلها لكان عادلا، وأحالوا أن يفعل الله بعض الأمور لأنه لو فعلها لكان ظالما. فهؤلاء تصوروا إمكانية وقوع الظلم من الله سبحانه وتعالى إذا فعل بعض الأشياء.والصواب أن الظلم غير متصور أصلا في حقه سبحانه وتعالى، فهو مستحيل في حقه سبحانه وتعالى، لأنه لا يوجد من يحد لله حدودا بحيث لو تجاوزها لكان ظالما، ولأنه لا يتصرف في ملك غيره، بل كل شيء ملكه سبحانه وتعالى، وله أن يفعل فيه ما يشاء.

وقال المعتزلة أيضا أنه يجب على الله سبحانه وتعالى أن يراعي الصلاح والأصلح في أفعاله. والجواب أنه ليس على الله سبحانه وتعالى أن يراعي الصلاح والأصلح. وإنما قد يراعي المصلحة تفضلا منه ورحمة. لأنه ما من صلاح إلا وفوقه أصلح. فمثلا، الأصلح أن يخلق الله عباده في الجنة ولا يعرضهم للشقاء في الدنيا. كما أنه لا توجد ملذات إلا ويتصور ما فوقها. وبما أن ذلك لم يحدث، فقد ثبت أن الله سبحانه وتعالى ليس عليه أن يراعي الصلاح والأصلح في أفعاله.

ولكن، ألا يعد ترك مراعاة المصلحة من قبيل السفه؟ والإجابة هي أن السفه غير متصور في حقه سبحانه وتعالى أصلا، وذلك لأن السفه معناه تفويت المصلحة، والله سبحانه وتعالى ليس له مصلحة في فعل أي شيء، وذلك لأن المصلحة:

١- إما أن تكون عائدة على الله سبحانه وتعالى.

٢- وإما أن تكون عائدة على العباد.

أما لو كانت عائدة على الله سبحانه وتعالى، لكان ناقصا يستكمل النقص بقضاء المصلحة، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك. وأما لو كانت عائدة على العباد، لكان أحد جانبي الفعل أو الترك أرجح في ذاته من الآخر، ويفضي ذلك إلى نفي اختيار الله سبحانه وتعالى وإرادته، وقد أثبتنا من قبل أن كل شيء يقع بإرادة الله وحده وباختياره فقط لا شريك له. فالسفه غير متصور في حقه سبحانه وتعالى أصلا. وعليه، فأفعال الله سبحانه وتعالى غير معللة بالأغراض أو المصالح. فالله سبحانه وتعالى لا يفعل لعلة، ولا يقال له لماذا فعل كذا أو لماذا لم يفعل كذا، بل الله يفعل ما يشاء. "لا يُسأل عما يفعل". فكل ما يقع في ملك الله، إنما يقع بإرادة الله سبحانه وتعالى، وليس لنا إلا التسليم بالقلب والرضا بقضاء الله وقدره. وكل ما يقال عن أفعال الله سبحانه وتعالى، يقال أيضا عن أحكامه سبحانه وتعالى، فهي أيضا غير معللة بالأغراض والمصالح. فلا يقال لله سبحانه وتعالى لماذا أوجب كذا أو لماذا أحل كذا أو لماذا حرم كذا. فالله سبحانه وتعالى له أن يحكم بأي حكم. ولو أوجب علينا ما هو حرام، أو حرم علينا ما هو واجب، لكان ذلك جائز في حقه سبحانه وتعالى. وبما أن أفعال الله سبحانه وتعالى وأحكامه لا تعلل بالأغراض والمصالح، فليس لنا إلا التسليم.

والتسليم تسليمان: التسليم لقضاء الله وقدره، والتسليم لأوامر الله سبحانه وتعالى وأحكامه.

أما التسليم للقضاء والقدر فيكون بالرضا بالقلب عن القليل أو الكثير، الغنى أو الفقر، الصحة أو المرض، اليسر أو العسر. ثم إعذار الخلائق، وترك الغرور وأحلام السيطرة. وأما التسليم لأوامر الله سبحانه وتعالى، فتكون بالبحث عن أوامره ونواهيه كما جاء في الشرع فقط، والانقياد لها كما هي، دون تحريف ولا تبديل، ودون إبطاء ولا تأخير، قدر الطاقة والمستطاع، وبلا استعلاء على الآخرين بالطاعة، وبلا استهزاء من الآخرين لمعاصيهم، وبلا ظن لاستحقاق الثواب، وبلا يأس من رحمة الله، وبكامل الخوف والرجاء. ويتعلق بالتسليم الأول فهم معنى القضاء والقدر. ويتعلق بالتسليم الثاني فهم معنى التحسين والتقبيح وأنهما شرعيان وليسا عقليين. وهما ما سنشرحهما فيما يلي بإذن الله.

القضاء والقدر

أما القضاء، فهو إرادة الله سبحانه وتعالى المتعلقة أزلا بتخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه. أي أن قضاء الله سبحانه وتعالى هو التعلق التنجيزي القديم لإرادة الله سبحانه وتعالى بتخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه. أي أن تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها، إنما تم وقضي وانتهى بإرادة الله سبحانه وتعالى منذ الأزل. فإرادة الله سبحانه وتعالى قد خصصت الممكنات كلها منذ الأزل، وقضي الأمر على ذلك.

وأما القدر فهو إيجاد الله سبحانه وتعالى الأشياء بقدرته على طبق تخصيص الإرادة. فالقدر يحدث أمام أعيننا كل يوم، بأن الله سبحانه وتعالى يُوجِد بقدرته كل شيء على طبق ما خصصته إرادته سبحانه وتعالى منذ الأزل.

والإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان، وأن القدر خيره وشره من عند الله سبحانه وتعالى. فلا يقع في هذا العالَم من خير أو شر، أو طاعة طائع أو معصية عاصٍ، أو إيمان مؤمن أو كفر كافر، أو غير ذلك، إلا بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره، وليس علينا إلا الرضا والتسليم بالقلب. "لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون". وهذا هو التسليم الأول، وهو التسليم لقضاء الله وقدره. ولا يتم التسليم، إلا بالتسليم الثاني، وهو التسليم لأوامر الله سبحانه وتعالى وأحكامه. وهو الإقرار بأن التحسين والتقبيح شرعيان، وليسا عقليين. أي أن مصدر معرفة الحُسن والقُبح، هو الشرع وحده فقط لا غير، وليس للعقل دخل في التحسين والتقبيح أبدا.فما هو التحسين والتقبيح؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

التحسين والتقبيح

قالت المعتزلة إن معرفة الحسن والقبيح تكون بالعقل، لأن الحسن حسن لذاته والقبيح قبيح لذاته. وبنوا على ذلك قولهم في العدل الإلهي، وهو أنهم أوجبوا على الله سبحانه وتعالى فعل أشياء ليكون عادلا، وأحالوا على الله سبحانه وتعالى فعل أشياء حتى لا يكون ظالما. وبنوا على ذلك أيضا أن التكليف بالعقل قبل ورود الشرع. والحق أن الحسن والقبح لا يدرك بالعقل وإنما بالشرع وحده فقط. وقبل ورود الشرع، لا نعرف الحسن من القبيح. وذلك لأن الحسن هو ما لم ينه عنه الله سبحانه وتعالى، والقبيح هو ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه. وقبل بعثة الرسل، أي قبل ورود الشرع، فلن نعرف إن كان الله قد نهى أم لم ينه عن هذا الأمر أو ذاك. فالحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع. فمثلا، الزواج حسن لأن الله لم ينه عنه، والزنا قبيح لأن الله قد نهى عنه. ونحن نعيش الآن في زمن نسمع فيه من يقول إن الزنا حسن طالما كان بالتراضي، وأن الزواج قبيح لأنه تقييد للحرية، ولن تجد من ينكر على هذا القول أبدا، فعقول البعض تقبل ذلك بلا إشكال. ونلاحظ أن وصف الأفعال من حيث الحسن والقبح إنما هو وصف لكسب العبد بالنسبة لأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه، لأن العبد هو المأمور والمنهي. أما من حيث كونها أفعال الله سبحانه وتعالى، فكلها حسن، لأن الأوامر والنواهي موجهة للعباد وليس لله سبحانه وتعالى. إذن، التحسين والتقبيح شرعيان، وليسا عقليين، ولا تكليف قبل ورود الشرع، ولا يجب على الله سبحانه وتعالى فعل شيء أو تركه.

فالتسليم إذن تسليمان: تسليم للقضاء والقدر، وتسليم للشرع، وهي أوامر الله ونواهيه. ومن أخذ بواحد وترك الآخر فقد ضل وغوى. ولذلك، فلابد من تحصيل العلم بالعقيدة والفقه معا، والعمل بهما معا بلا إهمال لأي منهما. ولذلك قيل: من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق. ومعنى هذا الكلام أن إهمال الشرع زندقة، وإهمال العقيدة فسق. وفيما يلي بإذن الله نتعرف على مذاهب الناس في أفعال العباد، والصواب منها، حتى لا نقع في الفسق ولا في الزندقة والعياذ بالله.

مذاهب الناس في أفعال العباد

انقسم الناس حول أفعال العباد إلى ثلاثة مذاهب، وهي كما يلي:

١- القول بأن العبد هو الذي يُوجِد أفعال نفسه الاختيارية، وهو قول المعتزلة، ويلزم منه نفي القدر.

٢- القول بأن الله لم يخلق للعبد إرادة ولا قدرة، بل كل أفعاله اضطرارية، وهو قول الجبرية، ويلزم منه نفي التكليف والشرائع.

٣- القول الحق، وهو قول أهل السنة، وهو أن الله سبحانه وتعالى هو خالق أفعال العباد كلها، ويخلق لهم إرادة وقدرة غير مؤثرة مصاحبة لأفعالهم الاختيارية. ويكلفهم الله في تلك الحالة فقط رحمة منه وتفضلا وإحسانا.

وبعد أن تعرفنا على أفعال الله سبحانه وتعالى وعلاقتها بأفعال العباد، السؤال الآن، هل إرسال الرسل واجب على الله سبحانه وتعالى، أم جائز في حقه سبحانه وتعالى، أم مستحيل في حقه سبحانه وتعالى؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

إرسال الرسل جائز في حقه سبحانه وتعالى

قلنا سابقا إنه لا يجب على الله سبحانه وتعالى شيء، فلا يجب على الله سبحانه وتعالى إرسال الرسل كما زعمت المعتزلة، ولا يستحيل عليه إرسال الرسل كما زعم بعض غير المسلمين. وإرسال الرسل جائز في حقه سبحانه وتعالى، وقد أرسل رسلا كثيرين تفضلا منه ورحمة لا لكون إرسال الرسل يجب عليه سبحانه وتعالى. والسؤال الآن، ما الدليل على صدق الرسل وأنهم مرسلون بالفعل من الله سبحانه وتعالى؟ هذا ما سنعرفه فيما يلي بإذن الله.

المعجزة وخوارق العادات

الدليل على صدق الأنبياء والرسل وأنهم مرسلون من الله سبحانه وتعالى هي المعجزة. والمعجزة أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد مدعي النبوة تصديقا له في دعواه. فالمعجزة إذن من خوارق العادات، وقد فهمنا من قبل معنى خرق العادة عندما تكلمنا عن حكم العادة.

ولكن، ما وجه دلالة المعجزة على صدق دعوى النبوة؟ الإجابة هي أن المعجزة بكونها فعل لله سبحانه وتعالى على خلاف العادة فإنها تقوم مقام قوله: لقد صدق رسولي في دعواه. وقد ضربوا لذلك المثل التالي: لو أن ملكا من الملوك يجلس في وسط رعيته، ثم قام رجل من وسط الرعية فقال: أنا رسول هذا الملك إليكم. والدليل على صدق كلامي أن الملك الآن سيغير عادته فيقوم من مكانه ويقعد مرتين. والملك يسمعه. فقام الملك من مكانه وقعد مرتين تصديقا له في دعواه. فكان فعله ذلك بمثابة قوله: صدق رسولي في دعواه. ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى. ولذلك، فكل الأنبياء مؤيدون بالمعجزات لأنها هي الدالة على صدقهم في دعوى النبوة.

و خوارق العادات ستة أنواع:

١- الإرهاص، وهو أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد النبي قبل بعثته، تبشيرا بإرساله.

٢- المعجزة، وهي أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد النبي تصديقا له في دعواه النبوة.

٣- الكرامة، وهي أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد ولي من أوليائه تثبيتا له أو إظهارا لفضله.

٤- المعونة، وهي أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد شخص عادي إنقاذا له من كرب وقع فيه.

٥- الاستدراج، وهي أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد كافر ظاهر الكفر استدراجا له ولمن اتبعه في الكفر.

٦- الإهانة، وهي أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه وتعالى على يد كافر على عكس مراده إهانة له.

وجدير بالذكر أن الإرهاص والمعجزة قد انتهى زمانهما لأن النبوة قد ختمت بخاتم النبيين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فلا نبي بعده. والقرآن الكريم معجزته الباقية. وبقيت الأنواع الأربعة الأخرى وهي الكرامة والمعونة والاستدراج والإهانة. وجدير بالذكر أيضا أن الخوارق التي تظهر على يد الدجال من قبيل الاستدراج، لأنه كافر ظاهر الكفر وسيدعي الألوهية، فستقع على يديه خوارق العادات استدراجا له ولمن اتبعه في الكفر.

بعد أن تكلمنا عن المعجزات، فقد انتهى بذلك الكلام في مبحث الإلهيات والحمد لله رب العالمين. وقد تعرفنا فيه على ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه سبحانه وتعالى. وانتهينا إلى جواز إرسال الرسل وأنهم مؤيدون بالمعجزات الدالة على صدقهم، وهو المدخل إلى مبحث النبوات. وفي مبحث النبوات سنتعرف على ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق أنبياء الله عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام. وهو ما سنذكره فيما يلي بإذن الله.

النبوات

النبي والرسول

بدأنا الآن الكلام في مبحث النبوات، وهو معرفة ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق أنبياء الله عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام. والنبي: إنسانٌ حرٌّ ذَكَرٌ أوحى الله إليه بشَرْعٍ، سواء أمره بتبليغه أم لم يأمره. فإن أمره بتبليغه فهو رسولٌ أيضا. والنبي أعم مطلقا من الرسول. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا. أي أن بعض الأنبياء ليسوا رسلا، وبعضهم رسل. ولكن كل رسول، فهو نبي أيضا. وسنبدأ أولا بإذن الله بذكر ما يجب في حق الأنبياء.

فيجب في حقهم أربع صفات: الأمانة، والصدق، والتبليغ، والفطانة. وفيما يلي بإذن الله نتعرف على أول ما يجب في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي صفة الأمانة.

الأمانة

أول ما يجب في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو الاتصاف بالأمانة. والأمانة هي حفظ الله سبحانه وتعالى بواطنهم وظواهرهم عن التلبس بمنهي عنه، ولو نهي كراهة، ولو حال الطفولة. أي أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستحيل في حقهم ارتكاب الكبائر أو الصغائر أو المكروه، حتى وهم أطفال.
ويستحيل أن يقعوا في الذنوب الباطنة مثل الحسد والكبر والرياء وغيرها، كما يستحيل أن يقعوا في الذنوب الظاهرة مثل الزنا وشرب الخمر والربا وغيرها. ويستحيل أيضا أن يقعوا في ما هو مكروه شرعا. وصفة الأمانة هي المسماة بالعصمة. فالعصمة معناها أنه يستحيل عقلا أن يقع النبي في معصية أو شيء مكروه. ويخلط البعض بين عصمة الأنبياء وبين حفظ بعض الأولياء عن ارتكاب المنهيات. فمجرد الحفظ لا يعني العصمة. فالمحفوظ يجوز في حقه ارتكاب المعاصي، حتى ولو لم يكن يرتكبها بالفعل. أما المعصوم، فيستحيل عقلا ارتكابه للمعاصي. ولا عصمة لمن هو دون النبي من ولي أو غيره مهما كان. والدليل على عصمة الأنبياء أن الله سبحانه وتعالى أمرنا باتباعهم في أفعالهم وأقوالهم، والله سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بالطاعات، فلو جاز وقوعهم في المعصية أو المكروه، للزم أن تكون تلك المعصية أو المكروه طاعة، وهو مستحيل عقلا لأنه قلب للحقائق. ونتابع بقية الصفات الواجبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما يلي بإذن الله.

الصدق والتبليغ والفطانة

أما الصدق، فهو صدقهم في دعوى النبوة وفي تبليغ الأحكام. والصدق هو مطابقة حكم الخبر للواقع. والدليل على وجوب اتصافهم بالصدق أن الله سبحانه وتعالى صدقهم بالمعجزة كما شرحنا من قبل، فلو كان النبي كاذبا للزم تصديقه في كذبه، فيلزم الكذب في حقه سبحانه وتعالى، والكذب نقص يستحيل في حقه سبحانه وتعالى.

وأما التبليغ فهو إيصال الأحكام التي أمروا بتبليغها إلى المرسل إليهم. والدليل على أنه يجب لهم الاتصاف بالتبليغ أنهم مأمورون بتبليغ الأحكام من قبل الله سبحانه وتعالى، فترك التبليغ معصية مستحيلة في حق الأنبياء كما تقدم.

وأما الفطانة فهي حدة العقل وذكاؤه. والدليل على وجوب اتصافهم بالفطانة أنهم أرسلوا بإقامة الحجج وإبطال الشبه، ولا يكون ذلك من مغفل أو بليد أو ما شابه ذلك. كما أن البلادة صفة نقص تنفر الناس عن اتباع من هو كذلك، ونحن مأمورون باتباعهم والاقتداء بهم عليهم الصلاة والسلام. والأنبياء لا يكونون إلا من أشرف الناس، لأن الشريف هو المتبع، أما ما سوى ذلك فتأنف النفوس من اتباعه، ولذا فهم منزهون عن كل ما يخل بمنصبهم الشريف.

وبذلك نكون قد عرفنا ما يجب في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو الاتصاف بالأمانة وهي العصمة، والصدق والتبليغ والفطانة. وفيما يلي بإذن الله نتعرف على ما يستحيل في حقهم عليهم الصلاة والسلام.

معرفة ما يستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

ويستحيل في حقهم عليهم الصلاة والسلام الاتصاف بأضداد الصفات الواجبة في حقهم عليهم الصلاة والسلام. فيستحيل في حقهم الخيانة، أي التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة. ويستحيل في حقهم الكذب. ويستحيل في حقهم كتمان ما أمروا بتبليغه. ويستحيل في حقهم البلادة أو الغفلة أو ما شابه ذلك.

بعد أن عرفنا ما يجب وما يستحيل في حقهم عليهم الصلاة والسلام، فيجب علينا توقيرهم وإدراك مقامهم الشريف العالي، فهم وإن كانوا بشرا إلا أنهم مخصوصون بصفات ليست في غيرهم من البشر، وجنابهم المعظم لا يعلمه إلا خالقهم سبحانه وتعالى، وليس علينا إلا احترامهم وتعظيمهم، عليهم الصلاة والسلام. وفيما يلي بإذن الله نتعرف على ما يجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام.

معرفة ما يجوز في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

ويجوز في حقهم الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية، بأن لا يكون منهيا عنه ولا مباحا مزريا ولا مرضا مزمنا أو منفرا أو تعافه النفس. ومن المباح المزري سؤال الصدقة أو قبولها أو الأكل في الأسواق وما شابه ذلك. ومن الأمراض المزمنة العمى والجنون. ولم يصب نبي قط بالعمى، أما سيدنا يعقوب عليه السلام فأصيب بغشاوة على عينه وزالت عنه. ومن الأمراض المنفرة البرص والجذام وما شابه ذلك. فيجوز في حقهم الأكل والشرب والنوم والزواج ونحوها، أو الأمراض الغير مزمنة والغير منفرة. ويجوز في حقهم السهو في الأفعال دون الأقوال. وهذه الأعراض فيها تعظيم لأجورهم، وتشريع لنا، والتسلي بأحوالهم إذا ما نزل بنا ما نزل بهم من مصاعب، وتنبيه على حقارة الدنيا وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. وهذه الأعراض إنما هي بحسب ظواهرهم فقط، أما بواطنهم فمعمورة بالأسرار الإلهية، عليهم الصلاة والسلام. وبعد أن عرفنا ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد تم الكلام في مبحث النبوات والحمد لله رب العالمين.

والأنبياء جاءونا بوحي من عند الله سبحانه وتعالى، فعلمنا منه أشياء لا يستقل العقل بمعرفتها أبدا، بل كلها جائزة عقلا. ولا طريق لثبوتها إلا الوحي فقط لا غير، وهو ما يعرف بالسمعيات. وهو ما سنتعرف عليه بالتفصيل بإذن الله في المبحث التالي وهو مبحث السمعيات.

السمعيات

وجوب الإيمان بالسمعيات

وصلنا الآن إلى مبحث السمعيات، ولنلق نظرة سريعة كيف وصلنا إليه:

١- بدأنا بمبحث الإلهيات ومنه عرفنا أن العالم حادث وأنه يحتاج لخالق يوجده من العدم.

٢- فأثبتنا وجود الله سبحانه وتعالى وما يجب له وما يستحيل وما يجوز في حقه سبحانه وتعالى.

٣- عرفنا أن إرسال الرسل ممكن وأنهم مؤيدون بالمعجزات التي تدل على صدقهم في دعواهم النبوة.

٤- فدخلنا إلى مبحث النبوات، ومنه عرفنا ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق الأنبياء.

فإذا ثبت كل ما سبق، فلا مناص من الاعتراف والإقرار والإيمان بكل ما جاءوا به من عند الله سبحانه وتعالى من وحي، وهو مبحث السمعيات الذي نحن فيه. فقد جاء في الوحي الخبر عن الحساب والثواب والعقاب والحشر والنشر والصراط والميزان والحوض والجنة والنار والحور والولدان وغيرها الكثير من الأمور. وكل هذه الأمور لا يمكن معرفتها بمجرد العقل، بل العقل يحكم عليها كلها بحكم واحد فقط، ألا وهو أنها كلها من قبيل الممكنات العقلية. فمثلا، الجنة والنار من الممكنات العقلية. فالعقل بمجرده يحكم على وجود الجنة أو النار بأنهما من قبيل الممكنات العقلية. ولكن، هل يستطيع العقل وحده أن يجزم بوجود الجنة أو النار؟ الإجابة هي لا، فالعقل بمجرده لا يستطيع إلا أن يجيز وجود جنة أو نار، فهما ليسا من الأمور واجبة الوجود ولا مستحيلة الوجود. فما الذي جعلنا نجزم ونؤمن يقينا بوجود الجنة والنار؟ الإجابة هي أن الوحي وحده هو الذي أخبرنا بوجودهما. أي أننا سمعنا من النبي عليه الصلاة والسلام قرآنا يتلى بوجود الجنة والنار. ولأننا أثبتنا من قبل وجود الله وأنه أرسل الرسل وأن الرسل جاءونا بالوحي، فلا مناص من الإقرار والاعتراف والإيمان يقينا بكل ما جاء به الوحي من أخبار عن أمور، هي في العقل وحده ممكنة الوجود. ولأننا جزمنا بوجود هذه الأمور عن طريق سماعها من النبي عليه الصلاة والسلام، فسمي هذا المبحث باسم السمعيات، أي الأمور الثابتة بالسمع دون العقل، مع حكم العقل عليها بإمكانية وجودها ولا أكثر من ذلك. وفيما يلي بإذن الله نتعرف على بعض تلك السمعيات بالتفصيل.

الإيمان والإسلام

والإيمان هو تصديق النبي عليه الصلاة والسلام بالقلب في كل ما عُلِم مجيئه به من الدين بالضرورة. أي تصديق النبي عليه الصلاة والسلام في كل ما جاء به عليه الصلاة والسلام مما هو معلوم من الدين بالضرورة. والمعلوم من الدين بالضرورة هو ما اشتهر بين أهل الإسلام وصار العلم به يشابه العلم الحاصل بالضرورة، بحيث يعلمه الكافة بغير حاجة لنظر ولا استدلال، حتى ولو كان أصله نظريا، إجمالا فيما علم إجمالا، وتفصيلا فيما علم تفصيلا. ونلاحظ هنا أنه يوجد فرق بين العلم الضروري كما عرفناه في بداية كلامنا عن العلم، وبين ما هو معلوم من الدين بالضرورة. ولبيان الفرق نقول مثلا، إن إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى ليس في أصله من العلوم الضرورية، وإنما من العلوم التي تحصل لنا بالنظر والاستدلال كما أثبتنا من خلال دليل حدوث العالَم. ولكن لأن وحدانية الله سبحانه وتعالى مشتهر بين المسلمين في كل العصور فصار العلم به يشبه العلم الضروري، فهو أمر معلوم من الدين بالضرورة لكون كافة المسلمين يعلمونه يقينا بغير حاجة لنظر ولا استدلال، حتى وإن كان أصله من العلوم النظرية. ومن أمثلة المعلوم من الدين بالضرورة وحدانية الله سبحانه وتعالى ووجوب الصلاة وصوم رمضان وحرمة الخمر وما إلى ذلك. وتصديق النبي عليه الصلاة والسلام معناه الإذعان والقبول والتسليم بالقلب بغير مكابرة ولا عناد. والإيمان والإسلام شيء واحد شرعا. فالمؤمن هو المسلم، والمسلم هو المؤمن. والإيمان يزيد وينقص، فيزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصانها. ولكن الأعمال ليست من حقيقة الإيمان، خلافا للخوارج. ودخول الأعمال في حقيقة الإيمان معناه أن مرتكب الذنوب كافر، وهو مذهب الخوارج. وعلى ما سبق، فالكفر هو تكذيب النبي عليه الصلاة والسلام في بعض ما جاء به مما هو معلوم من الدين بالضرورة. فمثلا، من أنكر أن الله سبحانه واحد أو زعم أن الصلاة غير واجبة أو زعم أن الخمر حلال أو ما شابه ذلك، فقد أنكر معلوما من الدين بالضرورة. وجدير بالذكر أننا نعيش الآن عصر انتشار الجهل بشكل غير مسبوق، حتى قلت الأمور المعلومة من الدين بالضرورة. ولذلك، فالحذر واجب في اعتبار هذا الأمر أو ذاك من المعلوم من الدين بالضرورة في عصرنا هذا. وجدير بالذكر أيضا أن تكفير المسلمين، أي رميهم بالكفر، يعد من الكبائر الخطيرة. ونبدأ فيما يلي بإذن الله الكلام حول بعض السمعيات.

الثواب والعقاب

الثواب والعقاب من الأمور التي لا تعرف إلا بالسمع، أي من خلال الوحي، أي من خلال القرآن والسنة والإجماع. والثواب والعقاب ممكن عقلا. وقلنا إن الله سبحانه وتعالى يجوز في حقه عقلا أن يثيب الطائع أو يعذبه، كما يجوز في حقه أن يعذب العاصي أو يثيبه. أي أن العقل بانفراده يجيز الثواب والعقاب للطائع، كما يجيزهما للعاصي. ولا يمكننا أن نعرف أيهما سيثاب وأيهما سيعاقب إلا من السمع، ويكون ذلك بتجميع النصوص من القرآن والسنة والإجماع التي جاءت في الثواب والعقاب. وقد قام علماء أهل السنة بذلك، وخرجوا بالنتيجة التالية:

١- وعد الله المسلمين بالثواب، والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده، فسيثيبهم سبحانه وتعالى كما وعدهم، ويدخلهم الجنة بفضله لا بعملهم، خالدين فيها أبدا.

٢- توعد الله سبحانه وتعالى أصحاب الذنوب من المسلمين بالعقاب، والله سبحانه وتعالى قد يخلف وعيده تفضلا وتكرما ورحمة.

٣- الله سبحانه وتعالى قد يغفر لعصاة المسلمين فلا يعذبهم أصلا.

٤- الله سبحانه وتعالى قد يعاقب بعض عصاة المسلمين بالنار، ولكنهم لا يخلدون فيها، وإنما يخرجون منها إلى الجنة حتما، بشفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام أو غيره، ثم يخلدون في الجنة.

٥- الكفار سيعاقبون بدخول النار خالدين فيها أبدا، ولن يخرجوا منها أبدا.

وقد خالف الخوارج فقالوا إن أصحاب الذنوب كفار وسيخلدون في النار. كما خالفت المعتزلة فقالوا إن أصحاب الذنوب ليسوا بكفار ولا مؤمنين، وإنما في منزلة بين المنزلتين، وسيخلدون في النار يوم القيامة، ولكن عذابهم أقل من عذاب الكفار. والحق هو ما عليه أهل السنة كما شرحناه عاليه. وفيما يلي بإذن الله نتعرف على الجنة رزقنا الله إياها، ونتعرف على النار أعاذنا الله منها.

الجنة والنار

الجنة دار الثواب، والنار دار العقاب. والجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن بالفعل. خلافا للمعتزلة الذين قالوا إنهما ستوجدان في الآخرة. والجنة هي التي أهبط منها سيدنا آدم عليه السلام. والجنة والنار لا تفنيان، ولا ينتهي نعيم الجنة ولا عذاب النار، خلافا لمن زعم أنهما تفنيان، أو ينتهي نعيم الجنة أو عذاب النار. والمسلمون مصيرهم إلى الجنة خالدين فيها، والكفار مصيرهم إلى النار خالدين فيها، كما شرحنا عند الكلام عن الثواب والعقاب. ولا نحكم على شخص معين بدخوله الجنة أو النار، إلا ما جاء خبره في الوحي. ومن نعيم الجنة، الحور العين وهن نساء الجنة، والولدان وهم خدم أهل الجنة. وقبل أن يدخل المسلمون الجنة رزقنا الله إياها أو الكافرون النار نجانا الله وأعاذنا منها، لابد من الحشر والنشر والحساب والصراط والميزان والحوض، وهو ما سنذكره فيما يلي بإذن الله.

النشر والحشر والحساب والحوض والميزان والصراط

النشر هو البعث، وهو إحياء الله تعالى الموتى من قبورهم بعد جمع أجزائهم بعد تفرقها.

والحشر هو سوق الأجساد إلى الموقف، المسمى بالمَحْشَر، بعد البعث من القبور.

والحساب هو توقيف الله سبحانه وتعالى العباد في المحشر على أعمالهم، فعلا أو قولا أو اعتقادا، تفصيلا، بأن يكلمهم الله سبحانه وتعالى بكلام قديم لا بحرف ولا بصوت، بأن يزيل عنهم الحجاب حتى يسمعوه. ويكون الحساب للمؤمنين والكافرين والإنس والجن بعد أخذهم الكتب. ولا يكون الحساب للمعصومين، وهم الأنبياء والملائكة. ويستثنى من الحساب سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب، أفضلهم سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وأمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام مقدمون على سائر الأمم في الحساب وغيره.

والحوض هو حوض الرسول عليه الصلاة والسلام، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه أكثر من نجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبدا. سقانا الله وإياكم من حوض نبينا عليه الصلاة والسلام شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدا.

والميزان توزن به أعمال العباد.

والصراط جسر ممدود على متن جهنم بين الموقف والجنة، ترده المؤمنون والكفار للمرور عليه إلى الجنة.

ونسأل الله سبحانه وتعالى الفوز بالجنة والنجاة من النار. وفيما يلي بإذن الله نتعرف على الجن والملائكة والأنبياء والأولياء.

الجن والملائكة والأنبياء والأولياء

أما الجن فهم أجسام لطيفة نارية ولهم قدرة على التشكلات. وهم مكلفون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر.

وأما الملائكة فهم أجسام روحانية نورانية لطيفة، لهم القدرة على التشكلات الجميلة. والملائكة معصومون. ويجب الإيمان بالملائكة إجمالا فيما علم منهم إجمالا، وتفصيلا فيما علم منهم تفصيلا بأشخاصهم، ومنهم سيدنا جبريل وسيدنا ميكائيل وسيدنا عزرائيل وسيدنا إسرافيل عليهم السلام وهم رؤساء الملائكة. ومنهم منكر ونكير، ورضوان خازن الجنان، ومالك خازن النيران. ومنهم أنواع مثل حملة العرش والكَتَبَة والحَفَظَة.

وأما الأنبياء فهم معصومون كما ذكرنا من قبل. ويجب الإيمان بهم تفصيلا فيمن علم منهم تفصيلا، وإجمالا فيما علم منهم إجمالا. وممن علم منهم تفصيلا الأنبياء المذكورون بالاسم في القرآن الكريم وعلى رأسهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وسيدنا آدم ونوح وإدريس وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وشعيب وداود وسليمان ويونس وأيوب وذي الكفل واليسع وإلياس وزكريا ويحيى وعيسى عليهم جميعا الصلاة والسلام.

وأما الأولياء، فجمع ولي، وهو القائم بحقوق الله وحقوق العباد حسب الإمكان. والأولياء قد يكون لهم كرامات.

وفيما يلي بإذن الله نذكر ترتيب الخلق في الفضل.

ترتيب الخلق في الفضل

أفضل الخلق على الإطلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ويليه في الفضل أولو العزم من الرسل، فبقية الرسل، فالأنبياء، فرؤساء الملائكة، فبقية الملائكة، فأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وأفضلهم أبو بكر الصديق، فعمر بن الخطاب، فعثمان بن عفان، فعلي بن أبي طالب، فبقية العشرة المبشرين بالجنة، فبقية البدريين، فأهل بيعة الرضوان، فبقية الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فالتابعون، فتابعو التابعين. ويجب الإمساك عما وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم من النزاع. وفيما يلي بإذن الله نتكلم عن فتنة القبر، ونعيم القبر وعذابه، وأخذ العباد الصحف، والشفاعة.

الإسراء والمعراج وفتنة القبر ونعيم القبر وعذابه وأخذ العباد الصحف والشفاعة

الرسول عليه الصلاة والسلام أسري به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى راكبا البراق، ثم عرج به إلى السماء، يقظة، بجسده الشريف، مع سيدنا جبريل عليه السلام.

أما فتنة القبر فهي سؤال الملكين منكر ونكير للميت بعد تمام الدفن، فيقعدانه، ويعيد الله فيه الروح، ويسألانه: من ربك، وما دينك، وما تقول في الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، والرجل الذي بعث فينا هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فيقولان له: انظر مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا في الجنة. فيراهما جميعا. وأما المنافق أو الكافر، فيقول: لا أدري. فيقولان له: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطراق من حديد في يد أحدهما، فيصيح صيحة فيسمعها من يليه غير الثقلين.

وأما نعيم القبر وعذابه، فالمراد به نعيم البرزخ وعذابه، ومحله الروح والجسد. والنعيم يكون للمؤمنين، والعذاب يكون للكافرين وعصاة المؤمنين. والشهداء أحياء في قبورهم. والشهداء هم من قتلوا في جهاد الكفار لإعلاء كلمة الله تعالى.

وأما أخذ العباد الصحف فهي كتبهم التي فيها أعمالهم والتي كتبتها الملائكة الكتبة. والمؤمنون، بما فيهم العصاة، يأخذون صحائفهم بأيمانهم، والكفار يأخذونها بشمائلهم.

وأما الشفاعة فهي أنواع:

١- الشفاعة العظمى، وهي للنبي عليه الصلاة والسلام وحده، وهي شفاعته عليه الصلاة والسلام في فصل القضاء لإراحة الخلق جميعهم، المؤمن والكافر، من طول الوقوف ومشقته انتظارا للحساب.

٢- شفاعته عليه الصلاة والسلام في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وهي مختصة به عليه الصلاة والسلام.

٣- الشفاعة فيمن استحق دخول النار من عصاة المؤمنين أن لا يدخلها.

٤- الشفاعة في إخراج قوم من عصاة المؤمنين من النار.

٥- الشفاعة في زيادة الدرجات.

٦- الشفاعة في تخفيف العذاب عمن استحق الخلود في النار.

رزقنا الله شفاعته عليه الصلاة والسلام.

وفيما يلي بإذن الله نتعرف على بعض علامات يوم القيامة.

علامات يوم القيامة

جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة الكثير من علامات اقتراب يوم القيامة، وتسمى أيضا باسم أشراط أو شرائط الساعة. ومنها ما يلي:

١- خروج المسيح الدجال. وسمي مسيحا لمسحه الأرض في مدة يسيرة، ووصفه بالدجال، أي الكذاب، للتفرقة بينه وبين سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

٢- نزول سيدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام. وسيقتل الدجال، ويضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير.

٣- خروج يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان من ولد يافث بن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام. وسيخرجون في زمن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، وسيرسل الله عليهم النغف، وهو دود، في رقابهم فيموتون جميعا، ثم يرسل عليهم طيرا ترميهم حيث شاء الله، ثم ينزل الله المطر لتطهير الأرض منهم.

٤- خروج الدابة التي تكلم الناس.

٥- طلوع الشمس من مغربها.

وغيرها الكثير. وجدير بالذكر أن علامات يوم القيامة وكذلك كافة السمعيات لا تؤخذ إلا من القرآن والسنة والإجماع فقط لا غير، وليس فيها مجال للتخمين أو الاستنتاج أو الخيال. وبهذا نكون قد انتهينا من مباحث علم أصول الدين، وهي الإلهيات والنبوات والسمعيات. وفيما يلي بإذن الله نذكر بعض التطبيقات العملية لعلم أصول الدين.

بعض تطبيقات علم أصول الدين

كما قلنا سابقا، علم أصول الدين هو أصل علوم الدين والدنيا. وفيما يلي عرض لبعض العلوم التي تنبني على علم أصول الدين.

١- كلام الفلاسفة في العقليات يختلف عن كلام المتكلمين، الذين هم علماء أصول الدين، في العقليات. والعقيدة الأشعرية تسير على وفق رؤية المتكلمين. كما أن متكلمي الأشاعرة مختلفون عن بقية المتكلمين. ويصنف علم الكلام حاليا ضمن الفلسفة الإسلامية، وهو تصنيف خاطئ للسبب المذكور عاليه، وهو أن علم الكلام على المذهب الأشعري قد ضبط علم الكلام، ورد على الفلاسفة، فأصبح هو البديل الصحيح للفلسفة. وخلاصة ما سبق، أن علم الكلام الأشعري، لا ينبغي أن يصنف ضمن الفلسفة الإسلامية، بل هو في حد ذاته رد على الفلسفة بصفة عامة، ورد أيضا على علم الكلام الغير منضبط.

٢- علم أصول الفقه مبني على أصول الدين. وعلم الفقه، مبني على علم أصول الفقه. وعلم الفقه يبحث في الأحكام الشرعية التفصيلية، وكلها تعتمد على الأدلة الشرعية فقط، وهي القرآن والسنة والإجماع والقياس. وكما قلنا سابقا، فلا يوجد حكم شرعي واحد يثبت بمجرد العقل. أما عند الفرق المنحرفة، فقد

تثبت بعض الأحكام الشرعية بالعقل. هذا بالإضافة لما نسمعه هذه الأيام من مثل قولهم: الحكم الشرعي الفلاني لا يعقل. أو هل يعقل أن يأمر الله بكذا أو هل يعقل أن ينهى الله عن كذا؟ وكل هذه الأسئلة ليس لها أي وجه من الصحة، لأن الله سبحانه وتعالى له أن يأمر أو ينهى عن أي شيء، ولو أمر بما نهى عنه أو نهى عما أمر به لجاز ذلك.

٣- ولأن الأحكام الشرعية لا تعرف إلا بالشرع، فقد أخذ علم ثبوت الأدلة الشرعية اهتماما بالغا من العلماء. ولذلك اهتم العلماء بمعرفة المتواتر والآحاد من الأخبار، ومعرفة الصحيح من الضعيف منها، وهي علوم الحديث. وذلك لأن ثبوت الحكم الشرعي، فرع عن ثبوت الخبر.

٤- ولأن فهم الأخبار يعتمد على التفرقة بين ما هو ممكن عقلا وبين ما هو واجب عقلا وبين ما هو مستحيل عقلا، فعلوم تفسير القرآن وشرح السنة النبوية تعتمد أيضا على علم أصول الدين. وذلك لأن الكلام العربي يحتمل الحقيقة والمجاز. والأصل في الكلام العربي حمله على الحقيقة، طالما كان المعنى ممكن عقلا. أما لو كان المعنى مستحيل عقلا، فلابد من التأويل، وهو صرف المعنى عن ظاهره.

والتأويل نوعان:

١- إجمالي، وهو صرف المعنى عن ظاهره مع ترك تعيين المعنى المقصود.

٢- وتفصيلي، وهو صرف المعنى عن ظاهره مع تعيين المعنى المقصود.

أما الفرق المنحرفة، فتراهم يؤولون ما لا داعي لتأويله، أو يأخذون بظاهر ما يجب تأويله.

٥- التصوف الصحيح ينبني على العقيدة السليمة، والفقه السليم المبني بدوره على العقيدة السليمة. وما تعانيه بعض الطرق الصوفية الآن من مشاكل، مثل دخول الفكر الشيعي أو الفلسفي أو فكر الخوارج، أصله إهمال دراسة العقيدة الأشعرية.

٦- علوم الدنيا كلها مبنية على فهم حكم العادة. ومنها قوانين الفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة وعلم الاجتماع. فمثلا، علوم السياسة والاقتصاد والدولة مبنية بالكامل على فهم حكم العادة في العمران البشري. وهو العلم الذي وضعه ابن خلدون في كتابه العبر. وكل من يتكلم في نظريات سياسية أو اقتصادية لا تراعي حكم العادة، فلا يمكن تطبيقها على الأرض، إلا بنوع من الغش والخداع. ومن أمثلة النظريات الخرافية الغير مبنية على حكم العادة في العمران البشري، نظرية الديموقراطية. فهي نظرية غير قابلة للتطبيق أصلا، ولا تطبق إلا بنوع من الغش والخداع وتلبيس المصطلحات.

وبهذا نكون قد انتهينا والحمد لله من سلسلة مقالات تبسيط أصول الدين، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن تكون نافعة ومقبولة لديه وأن يغفر لنا ما فيها من زلل، بحق جاه نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

وتم بحمد الله في الإسكندرية، في يوم الاثنين العاشر من شعبان ١٤٤٠ هجريا، الموافق ١٥ أبريل ٢١٠٩ ميلاديا.